منار حجازي

رواية

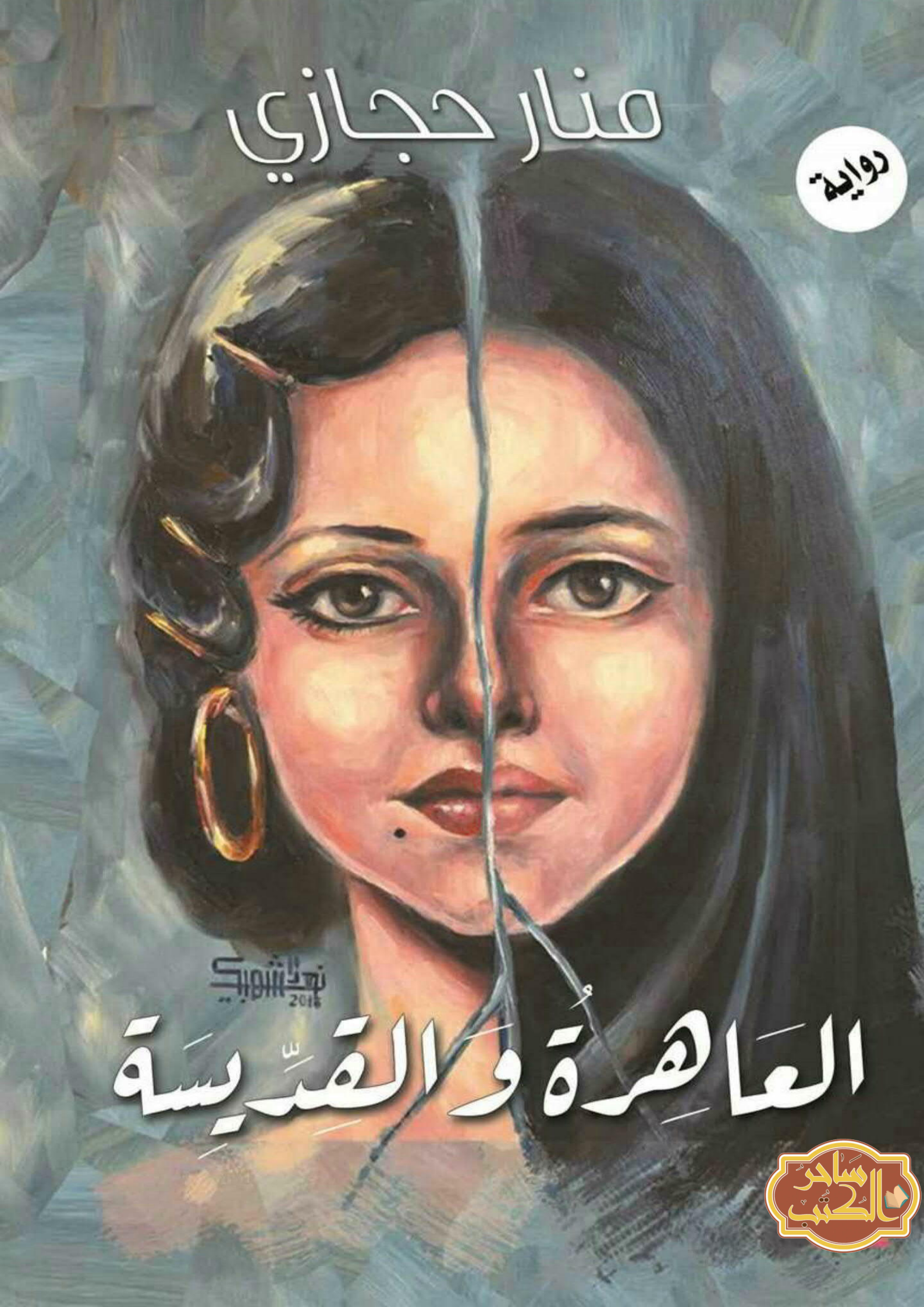

العَاهِرَةُ وَالقِدِّيسَة

إهداء

إلى كل امرأةٍ في العالم خُلِقت من لَدُن حكيمٍ خبير، خُلِقت لِتُنير عالمها الخاص قبل أن تُنير الكوْن بأسْرِه

إهداء

إلى ابنتيّ: مريم وسلمي

اتّبعا خطى قلبيكما فهو المنارة التي تضيء دروب الحياة فلتكن خطاكما دومًا صوب ذلك الضوء

أكتب هذه الرواية في هذا اليوم الموافق لـ ٢٠-٧-٢٠١٨ بعد تحضير واكتمال للفكرة التي استغرقت أكثر من ستة أشهر، حيث كنت أكتب الرواية أثناءها داخل رأسي أولاً.

أسأل الله التوفيق

(1)

في ليلة مقمرة ومن داخل حجرتها التي تطل على الشارع والباب الرئيسي للبيت، وقفت منيرة خلف الشباك الخشبي المتهالك تنظر بترقب وحذر، دقات الساعة الخشبية في الرواق الخارجي تدق دقه واحدة لتشير إلى النصف بعد الخامسة فجرًا، كان هذا ميعاد خروج آخر الزبائن من بيت العايقة (حسنية ألماظية) الشهير بشارع كلوت بيك.

دقات قلبها كانت أعلى وطأة من دقات الساعة، إنه اليوم المنشود، يوم ظلت تفكر فيه كثيرًا وتخطط له منذ أكثر من ستة أشهر، بعد أن تأكدت أن كل البرامجية قد داخلوا إلى البيت حاملين رؤوسهم المثقلة بدخان الحشيش والخمر وبثقل عملهم ما بين مناهدة الزبائن والقنطورات وأيضًا متابعة ومراقبة الضباط الإنجليز المناوبين للمنطقة، وإن السحابين قد انسحبوا إلى بيوتهم، والأهم في سماعها لصوت باب

العايقة يغلق بالمزلاج الخشبي السميك والذي يصدر زفزفة قوية يسمعها من بالشارع.

قامت ترفع رداءها وتأتي بالأنشوطة القماشية التي عكفت على صنعها منذ عدة أيام واضعة بداخلها كل الأموال التي تحتكم عليها عاقدة أيها على خصرها بشدة عده مرات، ثم أدلفت تحت السرير النحاسي والذي كان شاهدًا على كل لياليها بمُرِّها وحلوها، مخرجة أحد الألواح الخشبية مغطاة بخرقة عفنت من عدم نظافتها ومحركة نصف اللوح لأعلى لتخرج لفافة من شاش أخرق ملفوفة عدة مرات على بعضها البعض لينزلق منهن عدد من الحلي ما بين حلقا وعدد من الأساور الرفيعة وكردانا للصدر عريض وخلخالين، ارتدتهم كلهم في عجلة وبدون إصدار أيِّ صوتٍ؛ فقد كانت حريصة على إتمام مهمتها، توجهت إلى الصندوق الخشبي الذي يحوي ملابسها والقاطن تحت الشباك الموارب والتي كانت تجلس فوقه لتطل على الشارع من حين لآخر ليدخل لها منه بصيصٌ من نور

النهار الذي لاح له الظهور، هل سيكون نهار حياتها الجديدة؟

سألت نفسها في تمنٍّ

التقطت "بوئجة" الهدوم والتي كانت جهَّزتها قبل وقت قريب، الآن وقبل أن تدق الساعة الخشبية السادسة صباحًا كانت منيرة تلتقط ملاءتها الحريرية السوداء وتلفها على كامل جسمها مخرجة منها يديها اليمنى وتلبس يشمكها على وجهها، تخلع نعلها تمسكه مع "البوئجة" وتنزل بخطى مرتعشة تخشى أن يسمع من في البيت أزيز ركبتيها من الخوف، تتحرك إلى البدروم ومنه إلى باب حجرة الخزين، المخزن الذي يخزن بيه المؤن وما يلزم البيت والذي بيه بابا خلفي يفتح على عطفه ضيقه لا يقف عليها أي برمجي في هذا الوقت من اليوم، تفتح الباب بحرصٍ شديدٍ وتتحسس طريقها على الجدران العطنة للبيوت بهذه العطفة، إحدى العطفات الخلفية للحارة، ثم دخلت حوش في طرفه مشت لآخره حتى خرجت على الشارع الرئيسي ومشت بكل ثقة و تأنٍ حتى لا تلفت الأنظار إليها في

هذا الوقت من اليوم وفي هذه المنطقة، حتى ما لاح إليها الشارع الكبير شارع كلوت بيك، ازدادت دقات قلبها اضطرابًا، فالأمور على أحسن ما يرام حتى الآن، على ناصية الشارع المقبلة تلاح غايتها ومرادها، باب الحديد الذي بيه محطة القطار، القطار الذي سينقلها من عالم إلى عالم آخر سينقلها من عالم الموت إلى عالم الحياة، أخذت أحلامها الوردية تتراءى بين عينيها وشعرت بأنفاسها تتصارع من الفرحة حتى إنها بدأت تشد ظهرها وترفع من رأسها بعد أن كانت تمشي محنية الظهر خائفة ومضطربة.

وفجأة اصطدمت بأحد المارة وكان ضخم الجثة يمشي مترنحًا تفوح منه رائحة نتنة شعرت عندما لامسها أنها تعرفه فشهقت بصوت مسموع:

- لا مؤاخذه يا سي الأفندي.

ثم ما لبثت بعد أن وقعت عينها عليه أن صرخت.

- يا لهوي.. محروس.

اندهش الرجل فعينيه مدخشة من أثر الخمر والحشيش فأمسكها من ذراعها

- مين انتي؟؟

ثم ما أعقب بعد أن فتح عينيه على أقصاها فلمحها من خلف اليشمك فعيناها وبياضها كانوا لا يخطئهما بشر.

- منيرة؟؟ إيه اللي خرجك الساعة دي يا بت؟ وإيه اللي في إيديك ده؟ يا نهارك إسود انتي كنتي ناوية تهربي.

ترتعش ما بين يديه ترتجف كل خلاجاتها خوفا وحزنا علي حلم شارف علي الموت، حتي سمعت الصوت، الصوت الذي يأتيها،

- اركضي يا بنيتي اركضي ولا تلتفتي خلفك مهما حدث، إنه مثقل بخمره وحشيشه ثم إنه أعرج هل نسيتِ لن يتمكن من اللحاق بك، اركضي وبأقصى سرعة فحلمك ما زال يتنفس وحبك هناك ينتظرك.

استجمعت كل قوتها وضربته برجلها فيما بين رجليه بقوة جعلته يفلتها وهو يهوي على الأرض صارخًا.

- يا بت الحرام، والله ما أنا سيبك.

جرت وهي تسمعه ينادي على أسماء تعرفها جيدًا أسماء لطالما عند ذكرها ظهرت صور أمام عينيها كفيلة بإغمائها من كثرة الضرب والدم والتعذيب.

بدا صوته وهو يصرخ على الأسماء والتي يظهر أنها كانت قريبة منه في إحدى الخمارات أو البنسيونات الشهيرة على الشارع الرئيسي، ولكنها لم تلتفت كما أمرها الصوت، حست أنها مثقلة لا تعلم أهي الذنوب التي تملأها من شعرها لأخمص قدميها أم الأشياء التي تحملها، نطرت نعليها بشدة، وكذلك أفلتت بوئجة الملابس وفكت الملاءة من حولها لتتركها تطير من خلفها من رقتها فظهر فستانها القطني المزركش بالورد، ونزعت البرقع وقذفته بشدة فانسدل شعرها الحريري الأسود الألمع ساقطًا على كتفيها، ولم تحس بعد بأن الثقل قد خفَّ، فبدأت تقطع الكردان من على

رقبتها وتنزع الحلق الذهبي الكبير من أذنيها وترميهم بالشارع وهي تجري وتجري في اتجاه محطة القطار التي لاح هيكلها المعماري الضخم أمامها، بدأ التعب يحل على قدميها العاريتين وقلبها كاد أن يتوقف، أنفاسها فقدت خاصية الانتظام وبدأ النهجان يأخذ مكانه.

وما زالت تشعر بالثقل، فما كان منها إلا أني فككت أحد الزراير الوسطى لفستانها وأخذت تفك عقدة الأشروحة التي تحوي كل أموالها حتى انفكت وأخرجتها وقذفت بها إلى الشارع، لم تكن تلتفت إلى الماري من حولها والتي كانت تجري وراءها لتلتقط ما تقذف بيه، ليستولون عليه ويبدأون العراك على كل قطعة، لم تهتم، بالعكس.. كان قد طلب منها عدم إحضار أي شيء، فقط نفسها وكفى، لا يريد أموال ولا ذهب ولا ملابس، ولكنها رفضت وعزمت ما بين نفسها ألا تجاوبه في هذا الطلب، وكيف سيبدآن حياة جديدة بدون أي أموالٍ وهو أيضًا لا يحتكم على شيء.

ما زالت تجري وأنفاسها متلاحقة وقلبها صوت ضرباته غطت على صوت ما حولها.

لم تكن تسمع أو ترى شيئًا من حولها ولكنها كانت ترى أشياء أخرى..

كانت ترى هذا المكان الضخم ذو الأسوار العالية والسقف الخشبي الملون والذي به فتحات ينفَذْ منه ضوءٌ وهَّاج وتسمع تلك الأصوات الغريبة ما بين أجراس وأناشيد غير مفهومة وتشم تلك الرائحة الجميلة الصادرة من مبخرة نحاسية كبيرة.

كانت ترى تلك الطفلة التي تأتيها دائمًا في احلامها تغرس وجهها في بطن سيدة ترتعد وتبكي وتحيط بيها حتى تفاديها ضربات وقذفات تلحق بها من شخصٍ ما، تشعر بيد السيدة وهي تعتصر ظهر الطفلة لم ترَ وجه تلك السيدة قَط، فقط المشهد الذي تراه على الأرض في ركن ما، أصوات صراخ ونحيب، طفلة تخبئ وجهها في بطنها وصدرها وتحيط بظهرها باليد الأخرى.

كما ترى الآن (سنيه حلويات) والتي أصبحت (سنية العرجة) فيما بعد، بعد أن حاولت منذ عدة سنوات الهرب وكادت أن تنجح حتى قبض عليه بعض من تلك الأسماء التي كان ينادي عليهم منذ قليل ولم تكتفِ البرونات بعد أن جمعا كل المقطورات في المنطقة ليشاهدوا ما حدثَ لسنية حتى تكون عبرة لمن تنوي منهم الهرب، بل جعلوهن يقفن حولها يرون مدى عذابها ولم يستطيعوا حتى إن يقدم لها شربة ماء.

ما زالت تجري وكل هذه الشواهد أمام عينها..

تراها بصورة مبهمة غير واضحة، سيدة بفستانٍ طويلٍ وشعر منسدل خلفها لا ترى أين تقف أو ماذا تحمل بين يديها ولكنها دائمًا صوتها يلازمها وهو الذي أمرها منذ قليل أن تجري ولا تلتفت وراءها.

البوابة أمامها مباشرة.. بعد أن قفزت من بين ضلعين حديدين منفرجين لتدخل إلى ساحة المحطة الخلفية ومن ثم عدة درجات تصعد عليهم لتصبح فجأة داخل المحطة فتقف من الذهول، أناس كثيرون وأصوات

عالية بكل اللغات.. إنجليزي ويوناني وإيطالي وصعيدي.. وأشكال من مختلف الفئات هوانم وجنود وفلاحين وعمال.. وسقف عالٍ كالذي تراه في أحلامها به نفس الفتحات المضيئة ولكنها أكبر واوسع ونهايتها مفتوح على ممرات القضبان للقطارين، الروائح مختلطة نتنة أغلبها وعربات خشبية مُحمَّلة بصناديق كثيرة وأطفال في ملابس رثة يحملون لفائف من خبز وسميط وبيض وزجاجات مرطبه تتساقط منها قطرات الثلج السايح من حولها.

لم تعلم أين تذهب وأنفاسها ما زالت متسارعة ولم يهدأ قلبها بعد، حاولت أن تتطاول لترى من بين الجموع أي شيء يدلها على مبتغاها، ولكنها فشلت..

وفي لحظة سمعت صوتًا ضخمًا يهتز له حديد السور الفاصل بين رصيفي القطارين الرابضين أمامها قائلاً:

-القطار المتجه إلى الإسكندرية يتحرك الآن من رصيف رقم ١

أخذَتْ تنظر إلى اللوائح علها ترى رقم ١ أو تراه هو ولكنه لم يكن موجودًا، كانت قد حلفته بحياة السيدة والحسين أن يركب القطار في موعده في السادسة والنصف مهما حدث إن لم تأتِ أو حدث في الأمور أمور يتحرك هو بدونها وينساها تمامًا ولا يحاول الرجوع مرة أخرى، وأخذت عليه العهد بذلك حتى تكون مطمئنة.

وجدت الرصيف رقم ١ وتحركت في اتجاهه مسرعة محاوله الجري مرة أخرى، ولكن قواها لم تعد تحتمل دخلت الرصيف والقطار يطلق صفيره والدخان الأسود الخارج من فوهته يغطي المكان مع تلاحم البشر والحيوانات من حولها بدأ كل شيء في الضياع حتى إنها ارتأت أن تلقي بنفسها تحت القضبان وتتخلص من حياتها إلا أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس لوقفتها، وفي نفس لحظة سماعها أصوات الرجال الذين كانوا خلفها رأته.. رأته يطل من أحد الأبواب في آخر عربة في القطار والقريبة منها.

- اجري يا منيرة، اجري.

صرخ إسماعيل بكل قوته.

- هتلحقي يا منيرة اجري ي ي ي

الأصوات من خلفها تقترب أكثر فأكثر، كادت أن تلتفت إلى الخلف لتراهم ويرونها ولكنها تذكرت الصوت لا تلتفتي خلفك مهما حدث.

القطار يتحرك أسرع الآن

بدأت تجري وتجري

القطار يبتعد

وصوت الرجال من خلفها يقترب

وهو ماسك بيد في حديد الباب ويده الأخرى مدلاة في الهواء تحاول أن تمسك يدها

تفقد الأمل كلما أسرع القطار من حركته..

أصوات ارتطام عربات القطار في بعضها البعض أقل من أصوات ارتطام ضلوعها في صدرها من الرعب والخوف والتعب

تجري ما زالت تجري فاردة ذراعيها تحاول أن تمسك يدَ إسماعيل

يتبعد القطار أكثر

أصوات الرجال الآن بدَت واضحة بشدة، لدرجة أنها سمعتهم يأمرونها بالوقوف

- اقفي يا بت يا منيرة، خلاص مش حتلاحقيه مهما حصل.

- وقعتك سوداء يا منيرة.

ضحكات شريرة خارجة من أفواه تطفح منها أقذر الروائح

هم خلفها ولكنها ترى وجوههم بوضوح تخيُّلاً لما سوف يحدث لها، حتى إنها شعرت بعصا غليظة لا تفارق يديهم تسقط بشدة على رأسها وتشتم رائحة الدماء التي تنفجر منها وسالت على عينيها فأفقدتها الرؤية.

(٢)

في العام ١٨٧٠وبعد انتهاء الحرب المعروفة بحرب (القرم)، التي انتهت بعد ٧ سنوات أنتصر فيها محمد على باشا على الىونانيين المطالبين بالاستقلال عن الدولة العثمانية كما أمر السلطان العثماني في الباب العالي، بعد سنوات طويلة جعلت للعرب يد في مجريات الأمور، هناك استقر بعضهم وعمل بالتجارة آخرين،

كانت (ايلين) تعيش في اليونان لأبوين مسيحين؛ كان أبوها راعياً لكنيسه كبيرة هناك ، وكانت تسكن في الدار الملحقة بها، ولقد أثرت في شخصيتها شدة التدين والتعلق بدينها، فأصبحت ذات أدب وخلق رفيع على الرغم من صغر سنها فلم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة بعد.

أسرت إيلين ذات ليلة من قبل عصابة تعمل في تجاره الرقيق، ونزحت مع السبايا إلى مصر، وبيعت كحاظية لأحد الأغنياء في الصعيد بمبلغ كبير نظراً لجمالها

الفتان، فأسماها جليلة وضمها إلى النساء في منزله الضخم بأسوان وأسمتها المحظيات الأخريات جليلة القبطية؛ لأنهن لم يعلمن للمسيحين اسماً سوى قبطي، عندما رأوها تحافظ على صلاتها وتركع كل ليلة أمام الحائط في حجرتها، تتكلم باليونانية ضامة يديها إلى صدرها وتبكي

أعوام كثيرة مضت على إيلين في بيت الثري، الذي كان يعاملها في بادئ الأمر بلطف ومحبة ومودة، ثم أنقلب عليها وضمها للجواري بعد أن أحضر محظيات جدد، لم تكن تعرف أسرار ممارسه الحب وأن علمتها رفيقاتها الأسرار كلها، كما أنها تعلمت التحدث بالعربية، ولكن بلهجة غربية، ولكنها لم تستطع التكيف مع الوضع الجديد، وكانت حزينة باكية دائماً بعد أن انضمت للجواري، وشعرت بإعياء شديد بعد وقت قصير ، فعرفت أثناءه بحملها، وإذا ما كانت من الجواري فأنثاها تقتل فور ولادتها ، فلهذا الثري الصعيدي أحكام وقوانين خاصة به، فقد كان الحاكم

الفعلي للبلاد، وكان الجميع يخشونه بمن فيهم الحاكم المعين من قبل الوالي محمد علي.

خافت إيلين على طفلها من الحالة التي سيؤول إليها، وحرمانها منه في الأحوال كلها، وهي التي لم يبقَ لها شيء في هذه الحياة سواه، فقررت الهروب والنجاة بما تحمله بين أحشائها.

وسابقاً كان محمد على قد أمر بنقل بيوت العاهرات كلها إلى الصعيد، ولا سيما في أسنا وأسوان من أجل يتفرغ جنوده في القاهرة لعملهم، بعد أن لاحظ مرض الكثير من الجنود جراء علاقاتهن بتلك الغواني.

فلم يكن صعباً على السحاب في ذلك الوقت (إبراهيم الغربي) اصطياد تلك الجميلة الهاربة ووعده بحمايتها ومراعاة وليدها ، صدقت إيلين إبراهيم، فقد كان بارعاً في مهنته، وهو السحاب الأشهر في ذلك الوقت، والذي اشتهر ببراعته في إيقاع الضحية في ليلة وضحاها، بل يجعلها ترغب بالعمل كقنطورة، ويعرضها على العايقة التي تدفع فيها مبلغاً أكبر.

ولكن إيلين طلبت منه أن يصبر عليها حتى تلد، وتضمن أمأن طفلها، ومن ثم يفعل بها ما يشاء، فاختار لها بيت العايقة (حسنية الماظية) فمكثت وسط الفتيات وأحبوها حباً جماً، وكانت (فطومة الإسكندرانية) صديقتها المقربة التي روت لها إيلين قصتها، وأوصتها بمراعاة طفلها إن حدث لها أي مكروه وهي تلد من الثري- الذي كانت بمنزله- بعد أن علمت أنه يبحث عنها لقتلها.

كما كانت العايقة حسنية تغدق عليها الاهتمام، وتكثر لها من الطعام.

-أنت بتأكليها كتير كده ليه يا أبلتي؟ سألها إبراهيم ذات يوم

-يا واد افهم، دي عرق خواجة والحمل ح يرخيها ويضعفها وأنا عوزها حصان رماح فيه الخلاصة ، زبونها موجود وبيدفع كتير بس لازم البضاعة تبقي عفيه واللحم فيها طافح ، مش تبقي رفيعة ومعضمه، نسواني كلهم مربربين وفيهم الرمق ، عوز تضيع

سمعتي ولا ايه يا اد يا..... دا أنا العايقة حسنية على سن ورمح.

ذات ليلة كان قمر رمضان ما يزال هلالاً، شعرت إيلين بألم المخاض ، فخرجت فطومة تجري إلى بيت القابلة القريب، ووقفت حسنية تشدّ من أزرها، وهي فرحة، فهم أربعون يوماً، وتبدأ في عرض إيلين على الزبائن، فهي منذ مجيئها من القاهرة، لم تملك أي من الأثرياء الذين يمكن لأي عايقة التباهي بوجودهم في بيتها.

ووقفت فطومة تمسك للقابلة خرقه بيضاء نظيفة تتلقى بها الطفل .... وإذا بهم يشهقون حين أدركوا أن المولود كان طفلة، أخذت القابلة ترفع الطفلة وتضربها على ظهرها لتدخل أولى الأنفاس إليها، لكن نوراً هائلاً خرج من وجه الطفلة، فاعتقدوا أنه ضوء شمعة جديدة قد أضاءت، أو ضوء قمر منير، ولكنه ما يزال هلالاً،

-اسم النبي عليها النور مالى عينيها

بنت ما شاء الله ما شفت في جمالها... قالت القابلة في تعجب واضح:

- ماذا ستسمينها يا جليلة؟

نظرت إيلين إلى ابنتها وهي تضعها على صدرها مبتسمة قائلة دون تردد:

-منيرة

* * *

(٣)

في ليلة مقمرة وقفت نور خلف زجاج نافذتها في ترقب واضح وقلق شديد، أشارت الساعة على شاشة هاتفها المحمول إلى الرابعة فجراً، بقي أقل من نصف ساعة على موعد استيقاظ من في البيت لأداء صلاة الفجر، وإذا ما استيقظوا فسوف تفشل الخطة نهائياً، سوف يأتي الأقارب والجيران في ساعات الصباح الأولى، وسوف تبدأ التحضيرات والتجهيزات، وسينصب عمال الفراشة السرادق الكبيرة أمام البيت.

تنظر إلى هاتفها، وهي تهز أرجلها في غضب شديد

-يا له بقي والنبي يا رب

الساعة تشير إلى الرابعة وعشر دقائق، بقيت عشرون دقيقه فقط، عشرون دقيقه سوف تكون الفاصلة في حياتها بأكملها، لقد علمت أنها ستكون مسجونة طيلة اليوم بين يدي عماتها وبناتهن أن استيقظن، ولن

تستطيع أن تفلت من قبضتهن وقبضة العمال الذين استأجرهم أبوها للتأكد من إتمام الليلة على خير.

تنظر إلى الهاتف، الرابعة والربع

-يااااااارب يااااارب أنت العالم بحالى، أربع وعشرون سنة كنت مثالاً لكل أمر جيد أطيعك وأعبدك ، أصلي وأصوم ، والنبي يا رب لو كنت بتحبني نجيني منهم وحياة حبيبك النبي يا رب

بدأت تشعر باختناق وضيق، وبدأ العرق يتصبب من جبينها، وضربات قلبها تعلو وتهبط بشدة

عندما نظرت إلى الهاتف وجدت أن العقرب الصغير يتجه إلى الرقم أربعة مشيراً إلى الرابعة والثلث،

فأغمضت عينيها بشدة، وعضت على شفتيها، وبدأت الدموع تتسابق للخروج من مقلتيها.

اهتز الهاتف مشيراً إلى ورود رسالة نصية جديدة، ففتحتها بسرعة وهي تتنفس الصعداء، لتقرأ

-أنا وصلت، وأقف في المكان الذي اتفقنا على الوقوف به.

وضعت نور حقيبتها القماشية على ظهرها، وأحكمت إغلاق حذائها الرياضي، ثم وضعت الهاتف في جيب بناطلها من الخلف، ولبست كاباً يغطي شعرها بالكامل قبل أن تتجه إلى باب حجرتها وتفتحه في هدوء شديد، لكنها لاحظت صورتها وأمها في إطار صغير موجود على طرف مكتبها، فتراجعت وسحبته مقبلة الصورة داخله وهي تقول:

- يا ماما غداً ستسامحينني وأنت أكثر من سيقدر لي ما فعلته

-أسأل الله ألا تغضبي مني

فتحت باب الحجرة بهدوء، وخطت خطواتها في الظلام إلى أن وصلت إلى باب الشقة، وأمسكت مقبض الباب في حرص شديد وأدارته لتفتحه، في اللحظة

نفسها كانت الأضواء تضاء، وباب حجرة والدها تفتح وتجده أمامها.

نور؟!! ايه إلى موقفك جنب الباب كده؟ ولابسه كده ليه؟ ايه دا؟ صرخة أبيها في الجملة الأخيرة كانت كفيلة بإيقاظ كل من في البيت، خرجت أمها من حجرتها تتمتم

خير يا رب ، يارب خير ، في ايه يا حج بتزعق ليه؟ ثم نظرت إلى ابنتها

نور؟ خير يا بنتي؟ مالك متسمرة كده ليه؟ ورايحة فين الساعة دي ؟

وفي اللحظة نفسها كانت العمات الثلاثة وبناتهن وكل من في البيت يقف حول الأب.

ايه في ايه؟ خير يا حج أكرم؟

الهانم كانت عوزه تفضحني بعد العمر دا كله، الهانم بنت الأصول الطيبة كانت ح تحط راسي في الطين

كانت ح تهرب،

شهقت الأم، ولطمت العمة الكبرى على صدرها قبل أن يكمل الأب حديثه، وكان هذا الأخير قد خفف من حدة صوته خشية سماع الجيران صراخه.

صدق من قال أنكم جنس نجس ملعون ميجيبش لأهله غير الكافية، كان عندهم حق زمان لما كانوا يدفنوا البنات أول ما يولدوا.

ثم شد عزمه قبل أن يكمل

و زمان ليه احنا لسه فيه، والله الذي لا إله الا هو لأقتلك دلوقت حالاً وأغسل عاري بيدي، ثم اتجه فجأة إلى حجرته لإحضار مسدسه المرخص منذ أيام ثورة يناير

صرخت الأم وجرت خلفه، تحاول منعه في حين تفوهت العمات بكلام كثير لم تسطع نور فهمه أو استيعابه؛ فقد كانت في صدمة وذهول، لم تفق منهما إلا عندما شعرت بهزات هاتفها المحمول في جيبها،

الذي كان في وضع الاهتزاز ، فبدأت تستيقظ من الصدمة شيئاً فشيئاً .حصل ذلك كله وهي تقف ممسكة مقبض الباب بيديها، ومازالت حقيبتها خلف ظهرها، فما كان منها إلا أن سمعت ذلك الصوت الذي يأتيها:

اركضي يا بنيتي اركضي ولا تلتفتي خلفك مهما حدث، أنه مثقل بهمومه، ومازال النوم ملازماً له، لن يتمكن من اللحاق بك، اركضي بأقصى سرعة فحلمك مازال يتنفس، ومازال حبك هناك ينتظرك.

أدارت نور مقبض الباب، وفتحته على مصراعيه، وأطلقت العنان لقدميها اللتين انطلقتا كالريح، تنزل الدرج الذي يوصلها إلى الشارع.

صرخت العمة

-الحق يا حج.....نور هربت ، فتحت الباب وجرت

خرج الأب من حجرته يتطاير الشر من وجهه، حاملاً مسدسه، وهو يحشوه بالرصاصات، وأخذت الأم تصرخ غير مبالية للجيران

يذهب الأب مسرعاً إلى حجرة نور التي تطل على الشارع، يفتح النافذة بضربة واحدة من يده، وهو يمسك طرف جلبابه بأسنانه، ويصوب المسدس إلى ظهر ابنته التي لاحت جلياً أمام عينيه، تخرج من باب البناء راكضة، حاولت الأم دفعه بكل قوتها محاولة منعه، فدفعتها العمة الكبرى قائلةً:

-سيبيه يخلص عليها ويغسل عاره، المجرمة قليلة الربايا، على آخر الزمن تجي التي تهد اسم عيله اللبان، كان يوم أسود يوم ما خلفتيها، والأسود منه يوم ما اتجوز، يا ما قلنا له العرق دساس وأنت الله يعلم بأصلك وفصلك والبلاوي التي جايه منها

لم تبالِ الأم لكلامها، وحاولت النهوض، ولكنه كان قد فات الأوان، وسمعت صوت الرصاص جلياً في الأركان

لم ترَ نور أباها مصوباً رصاصاته إلى ظهرها من نافذة حجرتها، ولكنها كانت تعلم بذلك في داخلها وتراه، لم تنظر إليه كما أمرها الصوت، فقط ركضت بكل قوتها ، لم تسمع صريخ أمها، ولم ترَ عمتها وهي تدفع أمها

أرضاً، حتى لا تعترض مسار الرصاصة التي سوف تخترقها الآن.

فقط كانت ترى صورة مبهمة، سيدة ترتدي ثوباً طويلاً ذات شعر منسدل مرسل، لا ترى أين تقف أو ماذا تحمل في يديها، ولكن صوتها كان يلازمها دائماً، وهو الذي أمرها منذ قليل أن تجري ولا تلتفت ورائها.

هل ما أفعله حقيقي ؟؟هل سأتخلص الآن من كل هذا العناء والشقاء الذي عشت فيه؟؟

هل سأبدأ طريقاً جديداً وحياة جديدة؟؟

أخذت تسأل نفسها وتشعر أنها تتحلل من قيود كادت أن تصل إلى عنقها، كلما جرت أكثر شعرت أن الأغلال قد كسرت وحلّت متساقطة على الأرض حولها، لم تنظر خلفها، ولم تلتفت إلى المارين في الشارع المتجهين إلى المسجد القريب لأداء صلاة الفجر في مسجد الشيخ (اللبان).

وهم ينظرون إليها وإلى شيخهم الجليل الذي لطالما أعطاهم في درسه اليومي بعد صلاة العشاء مواعظ عن الصبر والحلم والحكمة، ويتسم أهل بيته بالرقي ويتصفون بأنهم من الملائكة وليسوا بشراً، أهذه نور ابنته التي تجري الآن أمامهم بملابس غريبة؟!!ملابس لم يروها من قبل إلا على المنحلات المارقات كما كانت تقول لمن تتخلى عن نقابها،

أهذه التي تجري هي نور الداعية الصغيرة التي كانت تعطي دروساً شرعية ودينية لفتيات الحي ؟

أهذه نور التي كانت تلازم الثوار أيام الثورة، ترتدي نقابها، وتهتف بكل قواها لساعات طويلة مطالبة بالحق والعدل والحرية؟ أهي من كانت اسماً على مسمىً؟ أهي من كان النور يخرج من وجهها مضيئاً تحت نقابها؟

لم تهتم أو تلتفت، كانت صورة واحدة ماثلة أمام عينيها.

وقف على ناصيه الشارع ، يلبس ثوباً ناصع البياض، ويمد يديه إليها ، تشعر بهواء رطب يتخللها ورائحة عطر

كتلك الرائحة التي تخرج من المبخرة النحاسية التي تراها في أحلامها في ذلك المكان الضخم ذي الأسوار العالية، والسقف الخشبي الملون، ذي فتحات ينفذ منها ضوء وهاج، وتسمع تلك الأصوات الغريبة كأجراس أناشيد غير مفهومة.

اجري يا نور اجري.

يقول إسماعيل وهو يمد يديه إليها:

ستصلين يا نور اجري، أنا بانتظارك

لم تعلم هل تلك الرصاصة التي شعرت بها قد اخترقت ظهرها وأن رائحة تلك الدماء خارجه منها؟

* * *

(٤)

ذاع صيت الشيخ أكرم اللبان في العام ١٩٨٠ بعد أن تتلمذ على يد الشيخ السلفي (مجدي غانم) ، وبعد أن كان فتى مدللاً لأسرة غنية مفككة، وجد أن هذا الطريق مناسب لكي يتحرر من قيود هذه العائلة وأفكارها المتسلطة وأوامرها المستفزة، فضلاً عن رغبته في إظهار نفسه ومواهبه بعيداً عن سلطتهم وتحكمهم.

ووجد في الشيخ مجدي غايته، فهو ابن عائلة مشهورة في الإسكندرية، وتعلم في إحدى المدارس الخاصة، وبالتالي سينحاز حذوه الكثيرون من طبقته إذا ما أحسن تعليمه، وقد كان.

وكان أكرم يملك صوتاً جميلاً قوياً، وكان يحفظ في بداية المرحلة الثانوية أغاني البيتلز وفريق الابا والألحان الغربية كلها، ويلبس مثلهم، ويترك شعره يطول إلى منتصف ظهره، وهو ابن الخامسة عشرة، وكان يتمنى أن يصبح مطرباً مشهوراً .

ولكن أباه طرده من البيت، وهو الولد الذي جاء بعد ثلاث فتيات، وبعد أن أقام لمولده الأفراح، وأقيمت الموائد ثلاث ليال فرحاً بقدوم الولد والوريث.

خاب ظنه بها حين رأى دلال أمه له وإغداقها الأموال، حتى أنه اعتاد السهر في الفنادق الشهيرة والمسارح المنتشرة على طول الكورنيش، وأطلق شعره، وأصبح لباسه كلباس تلك الفرق الأجنبية التي تملأ صورهم جدران حجرته، كما أصبحت علبه السجائر لا تفارق يديه وولاعة ذهبية أهدتها إليه والدته في عيد ميلاده الماضي عندما أتم الخامسة عشرة قائلة له:

-أنت رجال دلوقت، اعمل الذي بيعملوه الرجالة وميهمكش وأن كان على أبوك أنا أعرف أوقفه إزاي متخفش.

وقد كان أطاح بالكل وماج وهاج حتى على أمه ذاتها.

حتى فاض الكيل بالأب فطرده وحرمه من الميراث.

فالتقطه صديق قديم لوالده، وأقنع شيخ الجامع القريب أن يدعه يبيت ليلة أو ليلتين في المسجد إلى أن يهدأ الأب، ويعود إلى بيته،

ومن هنا عرفه الشيخ مجدي غانم الذي كان أكرم يسمع اسمه من حين للآخر .

في ليلة غاب عنها القمر من شهر رمضان المبارك في العام ١٩٩٠ ولدت نور.

كان أبوها الشيخ أكرم اللبان يقف خارج حجرة الولادة في مستشفى المبرة الخيرية التابعة لجماعه السلفين في الإسكندرية بعد أن حددت الطبيبة المعالجة للسيدة حرمه موعداً للولادة القيصرية، لأنها تعاني من مشكلات صحية خطيرة، وكان معه ابنه البكر عبد الله وأخوه عبد الرحمن، وأخته السيدة فضيلة اللبان وزوجها، وبعض من مردي الشيخ ومحبيه الذين جاؤوا للمجاملة.

وخرجت الطبيبة لتنادي الشيخ ليرى زوجته، ففوجئ بنور نافذ يخرج من بين يديها، ولما اقترب منها وجدها تحمل المولودة

بسم الله الله أكبر ايه النور دا؟ تساءل الشيخ في استغراب

-نور؟ ... قالت الأم وهي تستيقظ من آثار المخدر العام في جسدها

-أنت سمتها خلاص دي نور.... ربنا ينور لها طريقها ويجعلها من الصالحات ويجعلها نور لحياتنا

* * *

(٥)

استيقظت منيرة ذات صباح تشكو ألما مبرحاً في الرأس، فخرجت من حجرتها التي تقع في الطابق الثاني وقبل الأخير في البيت الشهير بشارع كلوت بيك بيت (حسنية العايقة)، وقفت على السور الحديدي الصدئ أمام باب الحجرة تنادي:

-عطيات، بت يا عطيات

-نعم يا أبلتي،،،

ردت عطيات الطفلة الصغيرة التي تعمل كخادمة للمقطورات الكبار، والتي كانت منيرة تترأسهم، والكبار هنا في الأهمية وليس في السن.

اجري يا بنت على أبلتك نحمده قولها أني جايه الحمام دلوقت، تسخني لي المية، وتنضف لي مكاني، وتحط لي ميه ورد وتعمل عصيدة تحط لي فيها ورق نعناع

وقرنفل وزنجبيل عشان تشدهم لي على راسي لحسن الصداع ممتوني، ثم قالت في صوت منخفض:

-يخرب بيتها شغلانة وسخة ح تموتني في عز شبابي، اأوف يقطعهم الرجالة كلها يا رب ولا تبقي نفر أجرب حتى منهم.

ثم تذكرت فرجعت تنظر من السور مرة أخرى لتقول:

-بنت يا عطيات قوليلةا تنده لي على سماره المدلكتيه، تيجي تتعكني لحسن ريحة الخواجة الأخرني بعبله بخمرته مسكه في تلأبيبي ،

ثم مشت في تثاقل تحمل طرف قميصها الأحمر الحريري بيد، وسيجارتها باليد الأخرى، تأخذ نفساً عميقاً وهي متجه إلى حجرتها مترنحة من الألم والصداع وقلة النوم قائلة:

-يقطعه راخر هد حيلي ألهى يهد حيلك ويشلك يا بعيد.

خرجت منيرة إلى الحمام تحمل فوطة بيضاء كبيرة بيد، رافعة جلبابها باليد الأخرى، وتنتعل قبقابا خشبياً يصدر صوتاً عالياً. وكانت تتقصد أن تدق به ليرن خلخالها الذهبي الضخم الملفوف حول نعلها، لتخبر من يقفن حول الباب بقدومها فينهضن، ولمَ لا؟ فهي الكبيرة في البيت واحترامها واجب كاحترام السيدة حسنية بذاتها.

-يختي أن شاء لله تتهدي يا بعيدة ، مهي طول مهي قاعدة لنا مش ح نسترزق في الهباب البيت دا ، دا الزباين عليها زي النحل.

قالت إحدى الفتيات وهي تدخن سيجارتها بغضب وحسرة:

-إلهي وأنت جاهي يفرمك ترامي سواقة أعمى وأطرش يا شيخة

أجابت إحدى رفيقاتها وهي تعض شفتيها، وهي ترى منيرة تعبر من جانبها ذاهبة إلى الحمام،

فتفهم من نظراتهن ما يرمونها به فتنظر إليهن، وتطلق ضحكة خليعة ذات صوت عالٍ، وهي ترمي بعقب سيجارتها في اتجاههم قائلةً:

-عين الحسود فيها عود، بخريني يا أبلتي

وتكمل ضحكتها بصوتها الرنان.

كانت منيرة ذات وجه ملائكي، بيضاء بياض تشهق له الأنفاس، لها عينان سوداوان مكحلتان، وشعر أسود قصير مليء بالتعرجات من الملاقط النحاسية الصغيرة الموضوعة بعناية كفتيات هذا العصر، ولقد زينت حسنة جميلة أسفل شفتيها المكتنزتين بلونهما الوردي.

منذ ولادتها في أسوان، والنور يشع من وجهها، نور دائم يلتفت الأنظار، أحبتها فطومة الإسكندرانية كما أحبتها العايقة حسنية حباً جماً، وأولياها رعاية خاصة بعد أن استطاع السحاب إبراهيم الغربي ونسوة البيت إنقاذها، في ليلة حالكة حين عرف الثري الأسواني البيت الذي كانتا تعيشان فيه وذهب إليهما، في حين

كانت تعتقد وأمها ومن في البيت أنه قد نسيهم وأنشغل في أعماله الكثيرة، وأنه لن يمثل أي خطر عليهم بعد كل هذه السنوات، ، ولكنهم فوجئوا به ورجلين يدخلون البيت في هذه الليلة، ويسألون عن جليلة القبطية ، وعندما استشعرت الخطر احتضنت طفلتها ذات الست سنوات، وجرت بها إلى غرفة المؤن أسفل المنزل، ولكنه استطاع الوصول إليها،

-مش أنا إلى اسيب واري عيال يعيشوا في بيوت الغواني، أنت كنتي فاكرة أني مش ح أوصلك ولا أعرف طريقك، أنا بس ماكنتش فاضي، لكن البلد دي بلدي وأي حاجة تحصل فيها بتكون بأمري،

قالها الثري العربي، وأسنانه الذهبية تلمع بين فكيّه وهو يجزّ عليهم، وما كان من إيلين إلا أن انزوت في إحدى الأركان تحتضن طفلتها، وتخبئ رأسها في صدرها، وتصرخ بشدة مطالبة إياه أن يترك لها الطفلة،

-وحياتك أنتما الاثنين ولا تساوي عندي كلب أعرج، بس إحنا منسبش لحمنا للغرب، لازم نخلص منه

ونستريح. وأخرج سيفاً لامعاً من عباءته، وفي اللحظة نفسها قفز إبراهيم الغربي عليه، وتكالبت باقي النسوة في البيت على الرجلين المرافقين له، وجرت فاطمة لتأخذ الطفلة من بين يدي إيلين والمعركة دائرة خلفها.

أحداث كثيرة جرت بعد هذه الواقعة ، قتلت إيلين بسيف الثري العربي؛ الذي استطاع أن يفلت من بين يدي إبراهيم بعد أن ضربه بيد السيف النحاسية على رأسه فأفقده توازنه، ويغرس السيف في قلب إيلين مرة واحدة، لكنه استغرب عندما رآها تبتسم ابتسامة ساطعة، ويشرق وجهها بنور غريب أضاء الغرفة السفلية في هذا البيت، مما جعله يرتبك، ويأمر رجاله بالانصراف بعد أن وجه حديثه إليهم بصوت مرتعش طالباً منهم ألا يحل عليهم النهار هنا، وأن لم يرحلوا حالاً فسوف يحرق البيت بمن فيه ، ولملم عباءته وهو لم ينفك ينظر إلى وجه ايلين ذي النور المضيء، والعنين المفتوحتين، والابتسامة الرائعة.

ولم يحل النهار إلا ورحل من في البيت ممسكين تلك الصغيرة الجميلة، التي لم تفارق أحداث تلك الليلة

خيالها أبداً.

* * *

(٦)

في عامها العاشر وقبل البلوغ ارتدت نور الحجاب نزولاً عند رغبة أبيها الشيخ أكرم اللبان، لم تعترض أمها، بل فرحت بابنتها، وأحبت نور زيها الجديد، وبدأت الأم تشتري لنور ملابس جديدة تتناسب وغطاء الشعر، أخذت نور تتقمص دور والدها في إلقاء الخطب والمواعظ، وأحبت تلك الشخصية التي جعلتها مميزة عن أقرأنها، ومحطّ إعجاب مدرسيها في المدرسة الإبتدائية ، ولاحظ فيها أبوها هذه الموهبة، فجعلها جليسته في محاضراته وجلساته كلها وأن كانت مع علية القوم ، فلم تكن تفارقه، كانت تجلس وكلها آذان صاغية، وقلب خاو، وعقل يحفظ ما يسمع، وكانت جلّ سعادتها في صباح اليوم التالي تكمن في استرجاع ما تحفظ في عقلها أمام صديقاتها، فقد كانت ترفع صوتها قليلاً إذا ما مرّ أحد الأستاذة دون أن تلتفت إليه، وكان قلبها يرقص طرباً عندما يقف هذا المدرس ليستمع إليها، ويشيد بموهبتها، ويثني على الله أن وهب الإسلام مثل هذه الداعية الصغيرة.

كانت تحفظ أغلب الأحاديث برواتها دون أن تفهم معناها، وكانت تجيد الأداء الانفعالي في الإلقاء، وكانت ماهرة في استخدام اليدين، وارتفاع الصوت، وتحشرج الحنجرة كانها على وشك البكاء في القصص التي تتحدث عن العذاب والخوف مقلدة أباها وشيخه الشيخ مجدي غانم الذي بدأ سيطه يفوق الوصف؛ من لقاءات تلفزيونية، ومحاضرات في مختلف البلدان الإسلامية، وعين له حرس خاص يقف على باب مسجد اللبان في منطقه ميامي الشهيرة في الإسكندرية، وكانت نور تُبهر بمثل هذا المشهد، وتتفاخر أمام أصدقائها بتناول الشيخ غانم العشاء معهم،

وعلى الرغم من أن نور كانت شديدة الجمال ذات بشرة بيضاء، وشعر أسود حريري طويل وعينين جميلتين مكحلتين كحلاً ربانياً، إلا أن أكثر ما كان يميزها تلك الحسنة الكبيرة التي كانت ترقد أسفل شفتيها المكتنزتين الورديتين.

لم تشعر نور يوماً بجمالها، وبأنها كانت محطّ غيرة البنات من حولها.

-يا اختي شوفي البت التي خراط البنات خرطها قبل ميعادها

قالت عمتها الكبرى عندما دخلت عليها ذات يوم، وهي جالسة، ترتدي قميص نوم مكشوف:

-أومي يا بت البسي حاجة مستورة شوية

-حاضر يا عمتي

أجابت نور في أدب جم، وقامت حالاً.

-يا أختي وأنت مالك ما تسيبها برحتها دي قاعدة في البيت

قالت السيدة سمية زوجة الشيخ أكرم(أم نور)

-وأنت مالك؟؟؟ والله الأصاص قامت والقوالب نامت، أنت بتقوليلي أنا أنت مالك؟؟ أنت نسيتي نفسك ولا

ايه؟ ولا نسيتي بتكلمي مين؟؟ د أنا الحاجة فضيلة اللبان، شوف يا أختي الولية الناقصة، مش كفاية رضينا بالهم والهم مش راضي بينا!!

قالت ذلك وهي تدخل غرفة أخيها الحاج أكرم، وتغلق الباب في وجه سيدة المنزل بكل قوة.

-قلت لك بلاش الجوازة المنيلة دي، لا أصل ولا فصل، وأنت وقعت على نفخوك من غير وعي، وقال ايه بحبها يا فضيلة، يا أخي حبك برص، المهم قوم وفوق كده علشان جيبنالك أخبار من الجماعة حتفرحك أوي

أنت عارف مركز الشيخ حسن جوزي في الجماعة دلوقت، وهو رشحك تبقى النائب عن دايرة بحري كلها،

-نائب في البرلمان؟؟؟

سألها الشيخ أكرم وهو يقوم من سريره احتراما لها.

-متستعجلش البرلمان جاي جاي أنما دلوقت لازم تثبت نفسك الأول جوه الجماعة، أنت حتدخل جماعة

الإخوان المسلمين وتحط رجلك وبعد منها مش بس البرلمان لا الذي جاي فوق مستوى خيالك.

-إخوان مسلمين؟ يا حاجة أنا سلفي ومش تبع الجماعة دول خالص

-وايه رأيك لو قلت لك أن الشيخ مجدي غانم أنضم ليهم، وعقدوا اتفاق ضمني أنهم يتحدوا لأن الجماعة بقى ليها ثقل عالمي وحاجات كتير أنا في حل عن شرحها ليك دلوقت،

-طيب وايه المطلوب مني؟

-حالياً هو مطلب واحد بس.

السمع والطاعة ، الطاعة العمياء ، مافيش جدال مافيش آراء،، فاهم السمع والطاعة

اه وحاجة كمأن، أنت لازم تتجوز جوازه عدله جوازه محترمه عن الهباب الذي أنت بلتنا بيه من 12 سنة دا،،

والحجج كتير عندك، كفاية أن دا نهج الرسول واحنا مأمورين باتباعه.

فاهم؟

-عليه أفضل الصلاة والسلام

رد الشيخ أكرم بصوت منخفض.

حين أعاده الشيخ مجدي غانم إلى بيت صديق والده بعد إجازة الصيف التي أمضاها معه وتحت جناحه، اقترح عليه أن يزوجه صغيراً بعد أن يتم المرحلة الثانوية، وأقنعه بالالتحاق بالكلية الشريعة، وقرر أن يتبناه علمياً، ويتخذه تلميذاً، فمن اليوم سوف يلازمه، ولكي يتجنب مشكلات والده ذهب معه لإرجاعه، وأقنعه بما قاله لصديقه.

غضب الأب غضباً عارماً، وهاج وماج، فلم يكن يخطط لشيء كهذا فيما يخص ابنه الوحيد، وريث هذه العائلة الكبيرة، فالتدين في هذا العصر كان من نصيب الفقراء وعالة المجتمع، حيث كان ينظر إليهم نظرة دونية.

-أنتم مجانين كلية شريعة ايه؟ أنا ابني يبقى مهندس ويتابع شغل العيلة في المقاولات، أنتم نسيتم ولا ايه؟ دا الواد الذي حلتي ووريثي الوحيد، ولا أنتم عوزين أزواج إخواته يورثوني ويأخذو كل حاجة ، أمال أنا بعمل كل دا لمين ؟؟ الكلام منتهي في الموضوع دا.

قال هذه الكلمات وهو يتجه إلى الباب مشيراً إلى انتهاء المقابلة.

بل ختمها بأنه سوف يحرمه من الميراث إذا ما خطى في هذا الطريق.

لم يستطع أكرم الرجوع، وأن كان قد تظاهر بالخضوع مؤقتاً كحيلة دبرها له الشيخ غانم إلى أن يهدأ والده، ويستطيع تدبير مسكن له بعد أن ينهي المرحلة الثانوية، وعند ظهور النتيجة يكون كل شيء قد رتب.

وكان أكرم داهية مكّاراً وذا ذكاء بالغ؛ حيث استطاع أن يقنع والده بأنه قد نسي هذا الطريق تماماً، وتظاهر بأنه كان مخطئاً، بل كان يستهزأ من تلك المدة العجيبة

في حياته، وأقنعته والدته -التي لم تكن تعلم أنها حيلة- أنه يريد أن يكمل تعليمه في أوربا ليعود مهندساً ويشيد لشركته أفخم الأبنية، ووافق الأب على مضض، وأن قال: أنه يخشى عليه الانحراف هناك، ولكي يقنعه أخبره بأنه سوف يعمل، ولن يحتاج منه إلى المال، فاضطر الأب إلى الموافقة بناءً على هذا الشرط ،فكان يسمع من أصدقائه ما يفعله الشباب الأغنياء من تضيع أموال ذويهم على الملذات هناك، وإهمال الدراسة من جراء انخراطهم في الحياة الأوربية، لكن ابنه سوف يعتمد على نفسه ويعمل باجتهاد لينفق على دراسته ونفسه.

فما كان من الشيخ مجدي إلا أن استضافه في بيته، وساعدة إلى أن التحق بالكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، وأسكنه بعد ذلك فوق سطح إحدى الأبنية في ميامي، وعمل على إيجاد عمل له في إحدى المكتبات الإسلامية التابعة لأحد أصدقائه بعد الجامعة. وقال الشيخ له آنذاك:

-دي فرصة كويسة علشان كمأن تقرأ كتير، وتلاقي مكان تذاكر فيه، وحاجة كمأن: المكان هنا يدخله أغلب الباحثين والشيوخ مساء كل خميس في الشهر (زي حفله الست الله يجحهما مطرح ما راحت) ضحك مقهقهاً ، بنعمل حلقه علم حتستفاد من كله بمشيئة الرحمن.

أُشتهر عن الشيخ مجدي فكاهته وطرافة حديثه الممزوج بأمثال من واقع الشارع المعاصر.

سكنت سمية في الغرفة المقابلة لغرفة أكرم فوق السطح، ومنذ أن وقعت عيناه عليها شعر باضطراب، وأحس بأنها المراد والغاية والعفة،

فتحدث مع الشيخ الذي أصبح الآن بمثابة والد له، حيث أصبح يعتمد عليه في الأمور كلها صغيرها وكبيرها . فما كان من الشيخ غانم إلا أن سارع إلى والدها؛ عامل سكة الحديد، الذي يملك خمسة أبناء سمية أكبرهم في عمر السادسة عشرة، وهي فتاة مصرية ذات جمال آخاذ، لم تتم تعليمها بعد المرحلة

الإبتدائية نظراً لضيق ذات اليد، وتكفل الشيخ مجدي بإتمام أمور الزواج كلها بما يتناسب مع قدرة العريس وأبيها المادية، وانتقلت سمية من الغرفة التي كانت تقطن فيها إلى الغرفة المقابلة، ترتدي ثوب زفاف بسيط أعارتها إياه إحدى صديقات العائلة، واشترى أكرم سليل الحسب والنسب خاتماً نحاسياً لعروسه من بائع متجول بزنقة الستات بخمسة قروش، ودفع ربع جنيه مصري مهراً لها.

كانت فضيلة الأخت الكبرى متزوجة آنذاك من رجل سياسة مشهور، ذهب إليها ذات ليلة وروى لها القصة كاملة؛ كيف أوهم والديه أنه في أوربا يدرس الهندسة ويعمل، وحدثها عن سمية وميعاد زواجه منها، وطلب منها الحضور

-يا نهارك أسود أنت أكيد اتجننت

-اتجننت علشان عوز أمشي في طريق النور

-لا اتجننت علشان أنت نسيت أنت مين، وابن مين وعيلتك مين؟ أنت عارف لو حسن جوزي عرف؟ أبوك وأمك وأخواتك واجوازهم ؟ دا أبوك يموت بحسرته عليك، أنت حر تختار مستقبلك بس مش بالكذب، ومش حر تتجوز الست التي من غير حسب ونسب دي؟ لا أنا مش موافقه ومش ح أقدر أجي وعلشان أنت أخوي الوحيد وبحبك مش ح أقول لحد الذي معرفش ازاي أنت قدرت تخبي حاجة زي كده، مخفتش حد يشوفك هنا؟ ويبلغ أبوك ولا حد يقابلك صدفة طيب في أي شارع، دي إسكندرية كلها تعرف بعض.

-لا يا فضيلة مخفتش علشان أنا في عالم وأنتم في عالم تأني خالص، والناس الذين أعرفهم وبشوفهم غيركم وغير الناس الذين أنتم تعرفوهم، خلاص برحتك أنا بس حبيت أنك تكوني معي في يوم فرحي.

-آسفة جداً مقدرش ومش موافقه على أي حاجة من الذي أنت فيه دا

-الله المستعأن، السلام عليكم

-وعليكم السلام

خرج أكرم يجر أذيال الخيبة، ولكن لم تمنعه فضيلة وما قالته من إتمام زواجه من سمية.

تزوج أكرم من سميّة، وكانت سعادته بالغة، فهو يصلي ويشكر الله كل ليلة أن رزقه هذه الزوجة المخلصة المحبة؛ التي أفنت زهرة شبابها في خدمته وأنجاب أطفاله الثلاثة.

عبد الرحمن وعبد الله وأخيراً نور حياتهما (نور)

عين أكرم بعد أن تخرج من قبل وزارة الأوقاف شيخاً لمسجد صغير في منطقة سكنه ميامي، وكانت الأمور المعيشية صعبة للغاية، ولكن سمية تكفلت بكل شيء، وكانت تقول له: أن البركة إذا حلّت على بيت من بيوت المسلمين أصبح كالجنة، فكان يجد طعاماً جديداً كل يوم، أولاده في غايه النظافة والأدب، وكل شيء جرى على ما يرام. كانت السيدة سمية ابنة

عامل محطة القطار، تهتم به اهتماماً بالغاً فلم يشعر يوماً بضيق ذات اليد.

إلى أن وصله ذات يوم خبر وفاة والده، فذهب مسرعاً إلى البيت الكبير الذي حرم خيره أعواماً كثيرةً، ووقف على غسل أبيه، وأتم مهمته إلى أن أوصله إلى مرقده الأخير وأخذ عزائه.

توجه وأسرته في اليوم التالي إلى البيت بقوة وجبروت، مفصحاً أنه رجل البيت الآن وسيده، وأنه الوريث شرعاً وقانوناً.

كان لديه ثلاث أخوات متزوجات، أقمن وأزواجهن حملة عصيان عليه كادت أن تصل إلى المحاكم،

وكرهن زوجته وأولاده منذ اللقاء الأول على الرغم من محاولات سمية في كسب ودهم إلا أنها محاولات يائسة لم تجدِ نفعاً.

لكن الأم فرحت برجوعه واحتضنت سمية وأولادها، وأبعدت العمات عنهم، وفرضت عليهن الوضع الجديد.

ثم ما لبثت الأم أن ماتت، واضطر أكرم لبيع القصر الكبير، وبناء مسجد يُشهد له بأنه الأكبر في منطقته، واتخذ من اسم العائلة شهرة له (مسجد اللبان)، وقال أن هذا هو خير مرد لأبويه بعد وفاتهما، واستقل وأسرته في شقه كبيرة بجوار المسجد، واستقال من الأوقاف وبدأ عمله في المقاولات خلفاً لأبيه، والذي قال لنفسه ذات يوم:

-مش لازم أبقى مهندس هو يعني ما أنا بعرف أعمل كل حاجة والشغل ماشي عال العال، الله يرحمك يا أبوي بقى لو كنت بس فهمتني ووفقتني على الذي كنت عوزه مكنتش بعدت عنك.

قال وهو يتنهد

-الله يرحمه بقى

وكانت مصر تشهد في هذه الآونة طفرة كبيرة في دخول الإسلامين وفكرهم الوهابي، حتى أخته الكبرى فضيلة قد تنقبت بعد أن دخل زوجها السياسي

المشهور كعضو في جماعه الإخوان المسلمين في الإسكندرية، وأقنع الشيخ مجدي غانم بالانضمام إليه، وأن فضّل أن يبعد أكرم حالياً عن السياسة لغاية في نفسه، وتوطدت علاقة أكرم بفضيلة وزوجها كثيراً، وظلت الأختين الأخريين على نهج أبيهما، ولم تنجرفا في هذه الزوبعة الدينية الجديدة كما كانتا تسميانها ،

ولكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو كره العمات الثلاث للزوجة أم الأبناء، ولاسيما الحاجة فضيلة فعلى الرغم من تدينها الظاهر إلا أن الطبقية والغنى والفقر مازالوا يحتلون جزءاً كبيراً من أفكارها

* * *

(٧)

كان الحظر قد أنفك عن بيوت الدعارة في العاصمة المصرية (القاهرة) منذ مدة، وأن كانت حسنية قد استقرت واستقر عملها في أسوان، إلا أنهم اضطروا إلى النزوح جميعاً بعد حادثه إيلين،

رجعت حسنية العايقة وفتياتها والسحاب الأشهر في ذلك الوقت إبراهيم الغربي إلى القاهرة، واتخذوا بيتاً ذا ثلاثة أدوار في منطقه كلوت بيك في وسط القاهرة ، وأصبح العمل الآن أكثر تقدماً؛ فكل الفتيات لديهن رخصة عمل، ويتم الكشف الدوري عليهن كل ثلاثة أشهر في مشفى الحوض المرصود في منطقه السيدة زينب، وأصبح للعايقة صاحبة البيت قوانين خاصة بها؛ يجب أن تتعدى الخمسين من عمرها، وهي مسؤولة مسؤولية جنائية عن فتياتها من حيث الكشف الدوري عليهن، وخلوهن من الأمراض، والحصول على تراخيصهن وتجديدها، وكان العسكر الإنكليز يطلعون

على ورق ملصق على باب كل دار يؤكد هذه الأوامر قبل الدخول إليهن.

كانت حسنية ذات ذكاء فطري بالغ ، تفهم الزبون وتأخذه على هواه، ولا يخرج من عندها إلا وهو راضٍ ومرتاح، وكانت حسنية تعتمد على إبراهيم السحاب في سحب أجمل الفتيات لها، كما أنها على الرغم من شدتها كانت كل فتياتها يهابونها ويحبونها ويجلونها، فهي مصدر رزقهن وأمانهن في دنيا جارت عليهن جميعاً، حيث كان لكل منهن قصتها الحزينة الموجعة، ووجدت في بيت حسنية العايقة ملاذها وخلاصها، وأن كانت تقسو على كل من لا تتبع الأوامر وتعاقبها عقاباً وخيماً

إلا منيرة؛ لأنها كانت تعتبرها ابنتها ووريثتها في البيت، وأوصت بذلك فطومة التي أصبحت كبيرة في السن الآن، وتجلس في البيت من باب المودة ومراعاة لمنيرة كما أمرتها إيلين ذات ليلة، وهي لا تنفك تذكر تلك الليلة السوداء، التي قتلت فيها إيلين، كما تذكر منظرها وهي تدفن مبتسمة، ولا يستطيعون إغلاق

عينيها، لم يفارقها ذلك المشهد، كما لم تفارقها منيرة منذ ذلك اليوم.

البيت، والبغاء، والذهاب إلى المستشفى كل ثلاثة أشهر لأخذ التحصينات وعمل الكشف الدوري، وزياره ضريح السيدة، والمباركة بالمسح على سياج قبرها الذهبي، وهذا الشعور الغريب الذي تشعر به كلما أتته، كان جلُّ ما تعرفه منيرة عن الحياة.

كانت في عمر العاشرة عندما بدأت تعي الدنيا، وهي في هذا البيت تخضع لقوانينه، وتفهم لغة الغواني، التي كانت لهن كلمات وإشارات لا يفهمها غيرهن ، تألمت وبكت عندما تأتي فتاة جديدة وتروي قصتها المؤلمة ، فتلك التي اعتدى عليها حبيبها وهربت من بيت أبيها خوفاً من الفضيحة بعد أن اكتشفت خداعه وتهديده بفضحها أن لم تلبي رغباته، والأخرى تركها أهلها الفقراء في بيت إحدى العائلات الكبرى تعمل كخادمه ، فاستحلها رجل البيت بعد أن اغتصبها عنوة، وكانت زوجته تعلم فتضربها وتكويها بسيخ حديدي ، وأخرى اعتدى عليها زوج أمها، وأراد منها أن تعمل

لصالحه فهربت منه، والقصة الأشهر هي اختطاف الفتيات من القرى والنجوع وتصديرهن إلى القاهرة للعمل في البغاء وغيرهن وغيرهن،

كما تعلمت كيف تدافع عن نفسها وتقف لكل من تسول إليه نفسه بمضايقتها، أمر إبراهيم الغربي إحدى الفتوات بتدريبها منذ نعومة أظفارها.

كان بيت العايقة حسنية أكبر مدرسة للحياة، وأن كان ينقصها أن تتعلم القراءة والكتابة.

كانت تنام كل ليلة في حضن فطومة الإسكندرانية، والتي لم تحكي لها يوماً عن نشأتها أو أمها وأبيها ولم تسألها يوماً،

ولكن البيت وزبائنه وشؤون إدارته من قبل العايقة حسنية والقائد إبراهيم هو كل عالمها.

في ذلك الوقت ذاع سيط ابراهيم الغربي بشكل كبير فهو على الرغم من أنه مخنس، ويلبس ملابس النساء

من جلاليب فضفاضة شفافة تكشف ما تحتها، وكان يضع أساور ذهبية كثيرة وأقراطاً في أذنيه وأنفه،

ويضع على وجهه غطاء نسائي يحوي فصوصاً فضية، إلا أنه قد سيطر على تجارة البغاء في مصر بأكملها، فهي عمله الذي ورثه عن أبيه تاجر الرقيق، الذي كان يملك قوافل تجوب البلدان لإحضار الفتيات والغلمان المنخسين والاتجار بهم.

وبعد عدة أعوام من العمل الدؤوب أصبح يمتلك خمسين بيتاً للبغاء، فضلاً عن تجارة الحشيش والأفيون والمسكرات في باقي فروع السلطنة، ثم تاجر في السلاح داخل معسكرات الجيش الإنجليزي، فخشي الجميع منه ، ولمَ لا؟ وقد أصبح الآن مورد الحشيش والأفيون، وتاجر السلاح المعروف لدى الحكومة الإنجليزية والمصرية، فقد ملك وحده مثلث الشر كله؛ مخدرات ودعارة وسلاح.

وأن كان لا ينسى فضل حسنية عليه وبدايته معها، كما لم ينسَ منيرة تلك الطفلة التي ترك أبوها بيد سيفه

النحاسي أول علامة دائمة على وجه أمها القتيلة ذات الابتسامة الغريبة.

فكان على الرغم من مشاغله ومركزه الآن يولي الاهتمام الأكبر لبيت العايقة حسنية وبناتها بشكل خاص، ويوفر لهم أجود رجاله من السحابة والفتوات والغفر لحمايتهن.

وكانت منيرة تعرف جزءاً من القصة، وهي أنها جاءت معهم وهي طفلة صغيرة من أسوان إلى القاهرة، ربما لم يحن الوقت للسؤال، من أبواها؟ وأين هما؟

وتعلم مدى اهتمامه بها دون معرفة الأسباب، ولا ما حدث منذ سنين في أسوان، ولكنها تستقوي به منذ صغرها، وتشعر أن لها سنداً وظهراً يهتم لأمرها بجانب العايقة حسنية وفطومة الإسكندرانية.

وعلى الرغم من جمالها إلا أنها كانت لا تشعر به، ولكنها أحبت في صغرها أن تمثل دور تلك الغانية وهي تتدلع على أحد الزبائن، أو تلك الفتاة وهي تغني أو ترقص،

بل كانت في بعض الليالي التي يقل فيها الزبائن تجتمع الفتيات وتجلس المعلمة حسنية، وفي يدها الجوزة المحملة بالحشيش وتقف منيرة في الوسط لتبدأ سهرتهم،

وهي تقلد الغانيات وزبائنهن، ويحضر أحياناً إبراهيم الغربي الذي يراهن عليها، أنها سوف تصبح البريمو ذات يوم لكل البيوت.

-بكرة أفتحلك كباريه لوحدك يا بت يا منيرة، دا أنت كنز لوحدك.

كانت منيرة تحب أن تشاهد الانبهار في عيون المقطورات وعيون إبراهيم، الذي كان يمثل لها القوة والسلطة، فكانت تسعى للاجتهاد فقط، حتى ترتوي بتلك النظرات المليئة بالفخر والإعجاب والحسد والغيرة من الغانيات الكبار.

* * *

(٨)

في عامها الرابع عشر كانت نور قد بدأت مرحلتها الثانوية، ولم تكن تعلم عن الدنيا شيئاً سوى دروس الدين وحفظ الأحاديث، وإلقاء الدروس لرفيقاتها ولبعض بنات الحي، والذهاب إلى المدرسة بنقابها والرجوع فقط لا غير، لم تعلم من أمور الحياة حولها شيئاً، فلم يكن هناك تلفاز في منزلهم قط ، وكانت قصة أمها المشهورة عندما ذهبت بها للامتحان في قبول رياض الأطفال فعرضت عليها المدرسة صورة بطة وسألتها ما هذه؟ فترددت قليلاً ثم قالت:

-قطة

-دي قطه؟ بصي كويس يا حبيبتي

-مش عارفة ...أجابت ببراءة الأطفال

- ازاي يا حاجة بنتك مش عارفه البطة من القطه؟ سألتها المدرسة في استغراب واضح

-وهي ح تعرف منين بس.. أصلها مش بتنزل الشارع خالص

- يعني مشفتهمش في التلفزيون؟

-لا معندناش والله تلفزيون

-طب مجلة أطفال ولا كرتون ميكي حتى؟

-لا حضرتك احنا معندناش غير كتاب ربنا وبس

لم تنفك أمها عن التندر بهذه الحكاية الطريفة من وجهة نظرها منذ أن وعت نور الدنيا.

إلى أن كان أول يوم في المدرسة الثانوية التي أصرت نور على الذهاب إليها بعد أنهاء تعليمها الإبتدائي والإعدادي في المعهد الأزهري القريب من بيتهم، وكان الشيخ أكرم منشغلاً بشيئين جديدين في حياته، زواجه ودخوله عضو عامل في جماعة الإخوان المسلمين.

شاهدت نور والدتها تبكي كل ليلة منذ ثلاثة أعوام، عندما دخل عليها ذات ليلة الشيخ أكرم ونهرها بصوت عال.

-أنت مش شايفة نفسك ولا ايه يا حاجة سمية؟ أنت بقيتي عاملة زي برميل الطرشيء في محل عبده البقال، وبعدين أنا راجل ولي متطلباتي مش كل ليلة أرجع تكوني نايمة ومهدودة من شغل البيت، قلت لك مية مرة عندك بدل الشغالة ٢ ، وأنت برضه بتصري تعملي كل حاجة، إيديك بأيديهم ، رحتك بصل ومحشي وأرف

حدقت سمية به في استغراب وصدمة؛ فهذه أول مرة يتكلم معها بهذا الشكل.

-من امتي بقي يا حج أكرم شايفني زي برميل الطرشيء، ومش أنت الذي واكل حلة المحشي التي رحتها ملأيني، وكنت مبسوط وتقلي محدش يحط إيديه في الأكل غيرك، أنا مبحبش إلا أكلك؟؟؟

ارتبك قليلاً قبل أن يجيبها.

-لا متاخدينيش في دوكة أنا بحب أكلك أه بس مش معقول الريحة دي، والتخن الذي أنت بقيتي فيه دا، وفين الجلإلىب التي جبتها من السعودية في آخر عمرة ولا القمصان المشخلعة التي بيلبسوها النسأوين لرجالتهم ولا أنت مبتشوفيش

-لا ح أشوف فين يا حسرة؟؟ أنت قافل علينا مية قفل، وقالت وهي تعضّ على شفتيها، وبدأت الكلمات تدور في ذهنها، فاختنق صوتها وأجهشت بالبكاء.

- أنا برميل طرشيء، الله يسامحك.

-الله مديني الرخصة أني أتجوز وأشوف مزاجي وأنا حبيت أبلغك علشان أبقى ماشي بما أمر الله.

-أنا فرحي على بنت أخ لينا في الجماعة الجمعة الجاية،

شهقت ولطمت على خدها، وهي تنظر إليه، وتدلت شفتها من الصدمة، وهمت أن تتكلم فلم يعطها فرصة قائلاً:

-ايه ح تعترضي على كلام ربنا وسنة رسوله ولا ايه يا حاجة سمية؟؟

دا أنا عوزك أنت التي تيجي تشوفيلي العروسة وتقوليلي ايه الاخبار من ضفر رجليها لشعرها، أمال...أنت مرات الشيخ أكرم اللبان، ولازم تكوني مثل لكل الحريم التي حولينا،، أمال ايه دا أنت الحاجة مرات الشيخ.

لم تعِ نور الحوار كله، وأن فهمت أن أباها على حق، ولطالما تحدث عن حكمة الله وأحاديث رسوله في زواج الرجل من أربع فهو على حق بلا شك، وأن كانت لم تعِ لماذا تبكي أمها بهذه الحرقة، وهو أمر قد فرضه الله وأقره، وليس لنا إلا السمع والطاعة دون اعتراض.

أصرت سمية على أن تكمل نور تعليمها، ولأن المعهد الأزهري كان ينتهي عند المرحلة الإعدادية، ولأنها لا تريد أن تذهب نور إلى المعهد الثانوي البعيد جداً عن منطقتهم، فوافق الأب على مضض بعد أن ألحت وأصرت عليه بشدة قائلةً:

-المدرسة عل الامه وبتك ما فيش في كمالها واخلاقها ح تخاف عليها من ايه ؟؟ أنا سبتك تتحكم في عبد الرحمن وتدخله كلية الشريعة وهو مش عوز وقالت واد وأبوه ما ليش دخل مع أن التاريخ يعني مش بعيد الله يرحم أبوك لما خلفت طوعه وهربت منه علشان تعمل الذي في شوقك

-أبوي مكنش فاهم وابني الكبير ميخرجش عن طوعي، أنا عارف مصلحته وبكرة ح يشكرني.

-ابنك مش مبسوط وأنا قلت لك وما ليش دعوه تصبح في يوم متلقيهوش متلمونيش

-اديكي قلتي ملكيش دعوة

ايوه بس نور بقى لي دعوة ونص وربنا وحق لا إله الا الله لو مرديت تدخلها الثانوي لأخرج ومتعرفليش طريق جرب وخليهم بقى في المسجد يقولوا مرات الشيخ طفشت منه ولا في الحزب وتبقى فضيحتك بجلاجل.

-أنا مبتتهددش يا حاجة ولا كلامك دا يفرق أي حاجة معي، أنا ح أوافق علشان حديث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام الذي أمرنا بالعلم ولو في الصين، والبت مسؤوليتك وتحت عينك في كله، من المدرسة للبيت ومن البيت للمدرسة، ومافيش أي خروج لأي سبب غير أنها تموت ونطلع على دفنتها، مفهوم.

-بعد ألف شر عليها وعلى فالك يا شيخ،

كانت تمشي بخطى ثابته ورأسها عالية، وثقتها في نفسها تصل عنان السماء، فهي تعلم أن سرعان ما تبسط موهبتها، وتبدأ بإلقاء دروسها وتفسريها مقلدة أباها والشيخ مجدي غانم، وتبهر مدرسيها كما اعتادت وأحبت، بل تخيلت نفسها أن المديرة والمدرسين حتماً

سوف يصطفون للترحاب بها عند بوابة المدرسة، لما علموا بقدوم ابنة الشيخ أكرم اللبان صديق الشيخ مجدي غانم، وأنتشت من الفرحة وأسرعت الخطى لتلقي الترحاب والتكريم.

ولكن منذ اللحظة الأولى وفي أولى خطواتها إلى داخل المدرسة أوقفتها ضابطة الطابور الصباحي، وطلبت منها رفع نقابها حتى تتأكد من شخصيتها.

-أقلع إزاي حضرتك، أستغفر الله

-هو أنا بقولك اقلعي هدومك بقولك ارفع النقاب علشان أشوف وشك ومافيش حولينا رجاله الغفير بره الباب، ومدينا ضهره،

اعترضت نور، فما كان من الضابطة التي تميزت ببنيان قوي، وملامح شديدة، كما أنها سريعة الغضب إلا أن رفعت النقاب إلى أعلى بقوة وبصوت جهوري قائلة:

-هنا مافيش اعتراض والذي أقوله يتنفذ بالحرف ولا أنت مش عارفه العقاب ح يكون ايه؟؟

ذهلت نور بعدما رأت الضابطة وجهها، وقالت لها ما قالت، ثم تركتها وانصرفت، لم يكلمها أحد من قبل بمثل هذه الطريقة، ولم تهن أمام الفتيات مثل هذه الإهانة، ويا ليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل بدأت تسمع ضحكات وهمسات من ثلاث فتيات، كن خلفها ويشاهدن ما يحدث.

-هوايه إلى هي لابسه دا؟ دا زي لبس العفاريت.

-يا ادي الأرف ايه الهباب الأسود دا على الصبح كده.

-ح تقرفنا بقى يا رب متطلعش معانا في الفصل.

ما زالت نور في ذهولها وهي التي كانت تتفاخر منذ قليل متخيلة مكانتها وسط الجموع، وسماعها همسات الإعجاب والغيرة حولها.

شعرت بيد تربت على كتفيها فالتفت وهي ترتعش، ودموعها مازالت تبلل نقابها.

-صباح الخير، أنت جديدة صح؟ تعالي معي أنا اسمي منال تعالي

وسحبتها منال من يديها دون أن تنتظر منها جواباً، وذهبت بها إلى دورة المياه، وأجلستها على أحد الكراسي، ورفعت نقابها ببطء لتغسل وجهها بالماء.

-بسم الله ما شاء الله، أنت وشك زي القمر الله أكبر، اسمك ايه؟

-نور

-اسم على مسمى والله لسه ح اقولك وشك في نور غريب

كانت منال ترتدي حجاباً أبيض يظهر وجها الخمري، وزياً واسعاً وطويلاً.

-خلاص هديتي شويه؟

- اه الحمد لله

طيب تعالي بقي نشوف أنت في أنه فصل

-أنت في سنه كام؟

-أنا آخر سنة خلاص في تالتة ثانوي يعني أكبر منك بسنتين.

دار في خاطرها فجأة ما حدث لها منذ برهة، والإهانة والاستهزاء اللذين تعرضت لهما، كما أن منال ليست معها في الصف نفسه، فأصابها الرعب خوفاً من المصير نفسه الذي سوف تلقاه.

أدركت منال ما يجول في رأسها وارتباكها فقالت لها بعطف بالغ:

-متخفيش كل حاجة ح تبقي كويسة وأنت لو في أي حد ضايقك بس رني على وأنا ح أنزل اجيلك، أنا رئيسة اتحاد الطلبة وكلهم بيعملولي ألف احترام، سجلي نمرتي أو ادیني نمرتك وأمسكت بشيء في يديها.

-نعم

حدقت نور فيما تحمله منال في ذهول ثم أجابتها:

-اديني نمرتك، أنا ح أرن عليك

-نمرة البيت تقصدي؟

-يا بنتي نمرة موبايلك؟

-مو...ايه؟؟

صعقت منال!! ليس فقط من عدم امتلاك نور لهاتف محمول بل من عدم معرفتها له أصلا ،،أنقطعت نور عن حضور جلسات أبيها منذ بلوغها منذ ثلاث سنوات، ولا تعلم عن العالم سوى دروس الدين، والوقوف في المطبخ مع أمها لتعلم فنون الطبخ، ومن ثم الجلوس مع بعض فتيات الحي اللواتي كن يحضرن لزيارة الحاجة، وهم جميعاً على شاكلة واحدة باستثناء واحدة كانت صديقتها الصدوق، أقنعها أبوها الشيخ منذ مدة طويلة أن تقطع علاقتها بها؛ فهي بنت

شيطانة، وأنها سوف تجرها إلى المهالك ، فقد سمعها مرة تتحدث عن المطربين ،وتطلب منه أن يسمح لنور بالذهاب معها إلى نادي المهندسين على شاطئ البحر في جليم، وأن أمها سوف تصحبهما.

-نادي...؟ أستغفر الله العظيم

بنتي مبترحش نوادي يا شاطرة ومتجيش هنا تأني أبداً، وأن شاء الله ندعو ربنا أن يخلصنا من جيران زيكم.

نهرها!!! فخرجت، لكن نور لم تعترض ولم تحزن على صديقتها، ولم تعِ ماهية المطربين الشياطين، ولا معنى النادي، فكان أمر أبيها وكلامه قرآناً بالنسبة لها، لم تشك أبداً في أنه عين الصواب.

مرّ اليوم وهي لم تصحُ من صدمتها، فقد صعقت حين رأت الهاتف المحمول الذي عرفت أنه موجود منذ أكثر من ست سنوات، ومن منظر الفتيات وملابسهن وحديثهن، لقد وجدت نفسها كائناً غريباً يمثل دور

البطل في أسطورة من الأساطير، ومنبوذة بعد أن كانت عما قريب ملكة تأثر قلوب من حولها.

لم تحدّث أحداً، ولم ترَ منال في آخر اليوم كما وعدتها، فخرجت إلى الشارع رافعة رأسها لترى العالم بعد أن كانت تنظر إلى موضع قدميها فقط.

* * *

(٩)

في حجرة فطومة الإسكندرانية كانت تجلس منيرة ذات الأربعة عشر ربيعاً، عندما دخلت سنية إلى الحجرة ترتعش وتطلب من فطومة مساعدتها.

-يا نهارك أسود يا بت يا سنية عوزه تهربي؟؟؟ قالت فطومة ذلك، وهي تضرب صدرها فيصدر عقدها النحاسي صوتاً عالياً؛ جعل منيرة تنتبه وتسترق السمع،

- وجاه السيدة يا أبلتي فطومة تساعديني. قالت سنية.... وهي ما زالت تبكي في استعطاف.

- تهربي بس وتروحي على فين وليه؟ ح تلاقي بيت تاني يلمك وأنت البريمو هنا؟!!! ولا تمشي في الشوارع ويخدك العسكر يقطعوكي حتت ومن غير فلوس؟؟!!!

-ح اروح في ستين داهية تاخدني بس امشي من هنا.

- ليه طيب؟؟!! بس إهدي وفهميني.

-سيدنا الحسين جإلى في المنام وقالى الذي أنت بتعمليه دا حرام.

-حرام...؟ صعقت فطومة وهي تضرب صدرها مرة أخرى.

-ايوه حرام وربنا ح يعذبنا ويشوينا في جهنم والتعابين ح تاكلنا واحنا في القبر.

-مين بس الذي قالك كده؛ دا أكيد واحد بيضحك عليكي وعوز يسرق شقاكي وتعبك ولا سحاب ابن ..... عوز يوديكي بيت تاني ولا عوزك لحسابه برانا؟؟

-بقولك سيدنا الحسين جالى في المنام،، سحاب ايه بس؟

-يا بت اهدي كده وبلاش الهبل دا، وهو لو كان حرام كانت الحكومة وافقت عليه؟ إحنا بنشتغل وبناكل لقمتنا من عرق جيبنا، ولا نشتغل في البيوت ونخدم

الافندي الذي برضه ح ياخد مزاجه منا ومن غير ما يدفع؟ مش إحنا لما بنمرض بنروح اسبتاليه الحكيمة تدينا إبره ، مش الحكيمة دي ريحتنا؟ مش بتاخد فلوس على الشغلانة دي؟ دا حرام في ايه بقى؟

-ايه الذي جاب يا أختي الحكيمة للغواني؟

-هي هي يا هبلة، إحنا الزبون بيجي لنا مرضان وعطشان بنريحوه وبناخدو أجرتنا.

-وجاه النبي يا أبلتي تساعديني.

-وجاه النبي أقتلك بأيدي يا بت قبل ما يقتلوكي الغجر الذين بره، أنت عمرك سمعتي عن واحدة هربت من بيت من بيوت سي إبراهيم ولا حاولت بس، قومي قومي اجهزي الليل قرب يدخل والزباين بدأت تهل، ولا روحي الحمام ادعكي جسمك يمكن الوسخ الذي في دماغك دا ينضف.

قامت وتركتها، ولم تنتبه إلى منيرة التي تسمع وترى ما يحدث حولها.

وعندما خرجت فطومة انهارت سنية وجلست تندب حظها، وتلطم خديها، فاقتربت منها منيرة تسألها:

-عوزه تهربي ليه يا ست سنية؟

ذهلت سنية لوجود منيرة في الحجرة، حيث لم تكن تراها أو تعلم أنها سمعت الحوار الدائر بينها وبين فطومة.

-شششششش بس بس يا منيرة أوعي تعيدي الكلمة دي تاني.

-لا متخفيش يا أبلتي أنا مش ح أقول ورحمة سيدنا البشبيشيء ما ح أقول.

-متعلميش أنت حاجة أنت لسه صغيرة، لا دخل عليكي ذبون شرحك ولا ضربك ولا تفه في وشك، ولا وليه مفتريه وسحاب وسخ ياخدو عرقك ويرمولك نكله كل كم يوم، دي شغلانة بنت ستين كلب وكلها مهانه وقلة قيمه، دا غير أني عرفت أنها حرام

-سمعت أبلتي فطموه بتقول شغلات البيوت هما الذين بيضربو لكن هنا لا.

-اش فهمك أنت يا هبلة هو أنت كنتي بتدخولي الماخور ولا تشوفي ورا الستاير ايه إلى بيحصل.

-طب بس متعيطيش طيب، ومين سي اسمه ايه الذي جالك في المنام دا؟

-سيدنا الحسين

-دا زي سيدنا البشبيشيء كده.

نظرت سنية إليها في غضب وقالت:

-النبي يا أختي أنا مش نقصاكي سيبني الله لا يسيئك.

ولم تمضِ أيام قليلة حتى استيقظ من في البيت على صوت صراخ وهرج وأصوات رجال كثيرة فهرعت منيرة، ونزلت لتقف وسط الفتيات اللواتي ارتدين ملابس شفافة قصيرة، لترى سنية ملقاة على الأرض

ممزقة الملابس، وشعرها في يد إحدى الرجال ذوي الجثة الضخمة، وآخرون يمسكون بعصاتهم الخشبية الغليظة، ويلتفون حولها ينتظرون مجيء العايقة حسنية وبعض القناطير الذين خرجوا من البيوت المجاورة وفتياتهم، وما إن أتت حتى أشعلت خابور الحشيش، وهزت رأسها معلنة موافقتها.

فبدأ الرجال يضربون سنية بأرجلهم وعصيهم على رأسها بكل قوة، نظرت حسنية إلى أحدهم وأشارت إلى قدميها وحوضها، فأمر الرجال بتركيز على الضرب على هاتين المنطقتين، وصرخت الفتيات وهمّ بعضهن بإنقاذها، فنالت كل من سولت نفسها المحاولة ضربة من عصا أو ركلة في بطنها أطاحت بها، ومنعت الأخريات من إعادة المحاولة،

ثم ألقيت في الشارع منذ الفجر إلى قبيل العشاء تنزف وتصرخ وتستجدي بالأخريات دون جدوى، فلم تستطع إحداهن الاقتراب منها أو مساعدتها، وفي العشاء حملها رجلان إلى الاسبتالية مدعين أنها كانت تنوي الانتحار، وألقت بنفسها أمام إحدى الشاحنات.

بعد شهر تقريباً من هذه الواقعة، وعند التفاف الفتيات حول إحدى الطاولات يتناولن إفطارهن، دخلت سنية برجل واحدة، مستندة على عكازين، حانية الظهر، ذات شعر أشعث ووجه يحمل آثار الضرب التي يبدو أنها لن تختفي بسهولة.

نظرت إليها حسنية قائلة:

-أنت جيتي يا منيلة، علشان تعرفوا يا نسوان حنية قلبي، مهنش علي أسيبها لكلاب السكك تنهشها حية، ودتها الاسبتالية ودفعت لها مصاريفها بالغالى ، قطعوا لها رجلها، وشالوا بقى إلى شالوه منها يعني مبتقش تنفع كلب أعرج حزين ، بس برضه علشان حنية قلبي رجعتها.

ثم نظرت إليهن، وقالت بصوت خشن مصحوب بالصراخ:

-التي تفكر فيكم يوم تهرب ح تبقي زي سنية العرجة، أقولكم من النهار ده ح نسميها سنية العرجة ،، ثم

ضحكت ضحكة خليعة. لم تعقب الفتيات، فقد كانت لقيمات الفول تقف في حلوقهن، وهن يشاهدن هيئة سنية الآن بعد أن كانت البريمو، المهلبية، الملكة ،، ألقاب أطلقت عليها ولكن ليس بعد الآن.

-اترمي في أوضه الغسيل، تغسلي للنسوان خلجاتهم وتنامي وتأكلي فيها متطلعيش ولا تشوفي نور ولا حد له كلام معاكي

ثم صرخت مسمعة الأخريات:

-سااااااامعة ..؟؟؟

تعاطفت البنات معها قليلاً، لكنهم نسوها بعد مدة، ولم ينسوا هذه الحادثة أبداً، فكلما ذكرت كلمة هرب ذكرت سنية العرجة وما حلّ بها.

* * *

(١٠)

-ايه موبايل دا

-تلفون متشال في الإيد

-ازاي يعني؟

-معرفش كل البنات في المدرسة والمدرسين وكل الناس في الشارع مسكينه.

-وسلكه فين يعني ازاي ماشين بالسلك دا كله؟

-مفيهوش سلك.

-أعوذ بالله من غضب الله ،، ازاي بس يا بنتي ؟؟مهو التلفون عندن

اهو هو صحيح بيرن كل فين وفين بس اهو ومربوط بسلك يعني ح تيجي له الحرارة من فين؟

- معرفش بقى يا أمي اهو حكمة ربنا كده.

-ونعم بالله يا بنتي

-المهم دلوقت أنا عوزه واحد.

-يا نهارك مش فايت، استغفري ربنا يا نور، واستعيذي بالله من الشيطان الرجيم، وادخلي أوضتك اتوضي وصلي لعل ربنا يبعد عنك المساوئ دي.

- يا ماما هو أنا بقولك ح اشرب خمرة؟ دي حاجة مهمة للثانوي المدرسة قالت لي كده، لازم تشتري لي محمول

-محمول ولا موبايل؟

--اسمه موووبايل. ومدت نور فمها للأمام وهي تؤكد لأمها حرف الوأو.

-خلاص طالما دا شيء لا يغضب الله ورسوله وابله المدرسة هي التي قالت لك لازمن تجيبه، أقول لأبوكي الحج لما يجي

-وهو بقى يجي؟؟ أنا بقالى شهر مشفتوش

-معلش الله يعينه مشاغله كتير، بس لازم يجي أخوكي عبد الرحمن جايله جيش، ولازمن يجي ياخده ويروح يشوفه وسطه يخرجه بيها ؟؟ ابني البكري يروح مني يا أختي لاااا

-طيب بالله عليكي يا امي تتحايلي عليه، ح أدعيلك تروحي تحجي وتزوري سيدنا النبي ، بس تجيبلي الموبايل

دخلت نور بعد حوارها مع أمها إلى حجرتها، ولأول مرة تقف أمام المرآة، وتنظر إلى وجهها، وتتذكر ما دار في المدرسة اليوم. وقفت منال في ثاني يوم للمدرسة داخل فصل نور؛ تلقي على الطالبات الجدد لائحة نشاط الطلبة، وتتضمنه من رحلات ترفيهية، ورحلات استكشافية، ونشاط الكشافة البحرية وغير ذلك.

كانت نور لا تفقه شيئاً مما يقال، فالمعهد الأزهري كان أشبه بسجن حربي لا يتعدى أسواره أحد، ولا تدخله

أي معلومة غير التي يسمح القائمين عليه بدخولها، فدخلت وخرجت لا تعلم سوى العلوم الشرعية والمواد العربية، والقليل من المواد الأخرى التي كانوا لا يولونها اهتماماً كاهتمامهم بالمادة الدينية وما تشتمل عليه.

ثم رحبت منال بنور ترحيباً خاصاً وكأنها صديقتها؛ تخفيفاً من وطأة المضايقات التي تتلقاها نور من الطالبات، وقد بدأت الطالبات يعتدن على نور ونقابها، ويتعاملن معها معاملة عادية، ولكن المشكلة تكمن في أن نور لم تستطع التأقلم معهن، ولم تعتد طريقتهن في اللباس، وأحاديثهن عن أشياء لم تسمع بها من قبل، ومشاعر لم تختبرها؛ لأنها لم تكن تعلمها، مشاعر اجتاحتها كلياً بل زلزلتها.

-أنت مرتبطة يا نور؟

-نعم؟؟

بتحبي يعني؟

-نعم؟؟؟؟

حدقت نور في استغراب فاتحة فمها من الدهشة، مجيبة عن السؤال الذي طرح عليها من قبل صديقه جاءت لتجلس بجانبها في الاستراحة.

-يعني مافيش في قلبك حد؟

-لا في.

-مين؟ احكيلي والنبي، ردت الصديقة وهي تعتدل في جلستها، وتقترب من نور، وتبتسم ابتسامة المنتصر الذي أخرج المارد من الإبريق.

-أولاً متقوليش والنبي .. لا حلفان بغير الله، شعرت نور بشوقها للدروس والنصائح، ووجدت فرصتها لتبدأ بهذه الفتاة التي تبدو طيبة، ومن ثم يذاع صيتها في المدرسة، وترجع مرة أخرى إلى دور الداعية الصغيرة كما كانت تحب،

-طيب طيب بس يلا احكيلي مين الذي في قلبك.. عارفة يا نور أنا بحلم بمين كل ليلة، ونفسي أترمى في حضنه وأديله بوسة حنك هههههه، (تامر حسني) قمر

قمر قمر يااااا أختي شوفتيه في آخر كليب عامل ازاي ابن اللذين، ولا صوره التي على الألبوم الأخير شفتي القميص ،ولا شعر صدره الذي باين من تحته.

كانت الفتاة تتكلم وتعضّ على شفتيها من العشق والإعجاب، وكانت نور كغنم صغير خرج عن القطيع وتاه، فالتقطه أحدهم وألقى به وسط المدينة، عالم غير عالمه وأرض غير أرضه ولغة لا يفقه منها شيئاً.

ثم أعقبت الفتاة لقد أتيت لتوي من السماء، كنت أعانق فيها (تامر حسني) وأرقص معه بقميصه المفتوح، وشعر صدره الأسود الثقيل الظاهر للعيان.

-ها قولي بقى ،، جارك،،ابن عمك،،صاحب أخوكي هاااا قوليلي يالله والنبي ... قصدي وربنا

-ربنا ورسوله، هما دول اللذين في قلبي. قالت نور ذلك، وهي تقف ممسكة طرف عباءتها، وترفعها قليلاً لتمنع عنها تراب الحوش.

-البت دي متخلفة أكيد، أنا إلى غلطانة أني قعدت معاها من الأساس.

عضت شفتيها من الغيظ، وهي ترى نور تغادرها فجأة.

-ابن الجيران، متهيئلى عبير كانت عندها أخوات صبيان أكبر منا على ما أتذكر بس عمري ما لمحتهم.

ابن خالتي، معرفهموش كل ما كان خلاني يجو يزورونا زمان قبل أبوي ما يقطع رجلهم عن البيت، بعد ما ورث أبوه وخاف على فلوسه لحسن أمي تديهم منها، منعهم عنا.

أولاد عماتي، أه عماتي التلاتة عندهم ولاد مش فاكرة حتى شكلهم بس عمتي فضيلة ابنها اتجوز من مدة وحضرنا فرحه بس كان ستات بس والرجالة في حتة تانية.

وعمتي نعمة الذي أعرفه عنها أنها مسافرة من زمان بلاد بره ومبتجيش..

وعمتي فتحية عايشة في القاهرة من ساعة شغل جوزها ما بقا هناك، ومعرفش ولادها اسمهم ايه؟ كنا زمان لما بتجمع في العيد الكبير الستات تدخل اليمة اليمين والرجالة اليمة الشمال ومابنشفهمش

هكذا ظلت نور تتساءل عن الجنس الآخر الذي لا تعلم عنه شيئاً، ولا ترى سوى أبيها وأخويها والشيخ مجدي وحراسه.

في حصة الألعاب البدنية أصرت المدرسة على عدم السماح لنور بالاعتذار ككل الحصص الفائتة، وألزمتها بإحضار الملابس المناسبة للحصه القادمة مع التعهد لها بأن الحوش لن يدخله الرجال، ولا يستطيع أحد أن يراه عن بعد.

ذهبت نور إلى عبير جارتها التي منعها والدها عنها منذ سنوات طويلة، وما إن فتحت عبير الباب حتى ارتمت نور في أحضانها، فلم تعاتبها بل أخذتها من يديها، وأغلقت باب حجرتها عليهما، وروت نور لعبير كل ما

حدث لها منذ دخولها مستشفى المجانين، أو كتاب الأساطير كما أحبت أن تسمي هذه المدرسة.

-والله يا بنتي كنت بقول لأمي أنك مدفونة بالحيا وقالت لي ملكيش دعوة كل بيت أدرى بحالة ، وبعد أبوكي ما طردني واتخانق مع أبوي كذا مرة بعدنا وقلنا من غير صباح الخير يا جاري أنت في حالك وأنا في حالي

- طب المهم دلوقت بالله عليكي تساعديني، أبوي مبقاش فاضيلنا وعبدالرحمن نزل القاهرة معاه وعبد الله في الجامعة.

-لا عبد الله في النادي. أجابت عبير بعفوية وسرعة.

-نادي؟ نادي ايه؟ وأنت اش عرفك؟

-مهو أنا وعبد الله .. يعني.. يعني كده بقى .....وضحكت عبير ونور مذهولة.

-أنت وعبد الله مالكم؟

-يا بنتي افهمي، يعني جو وكده

-جو؟

-يعني بنحب بعض خلاص استريحتى، هو بيحبني وأنا بموت فيه يا خواااتي

قالت عبير وهي تلف بفستانها القصير، وتدور في الحجرة، تضمّ يديها إلى صدرها، تاركة نور في فلك آخر تدق كلمة حب في رأسها.

اقترضت نور من عبير الملابس الرياضية، وفي حصة الألعاب الرياضية شاهدت نور شهقات البنات ونظراتهم عندما رأوها دون نقابها وعباءتها، وذكرتها تلك النظرات بسابقتها المندهشة وهي تلقي الدروس المحفوظة عن أبيها.

-ايه الحلأوة والجمال دا يخرب بيتك.

-شعرك دا يا نور ولا تركيب؟

-هو أنت حطه كحل ولا دي عينيكي رباني؟

-جسمك يجنن يخبل أنا لو رجال كنت..... هههههههه

- لا بجد يا نور أنت حلوه أوي ووشك زي القمر البدر والله .

-وشك فيه نور غريب

-ولا حسنة الجمال التي تحت شفايفك دي، ياا اخوتي د أنت تتاكلي أكل.

- أنت تنفعي ممثله سينما والله ولا الممثلات الأجانب.

-ازاي مخبيه كل الجمال دا تحت العباية السودا دي.

- أحسن برضه خليكي مخبية، ادينا فرصتنا إحنا لحسن كده نضيع جنبك.

هكذا تحدثت كل فتيات الفصل.

ولما دخلت حجرتها ووقفت أمام مرآتها رأت جمالها للمرة الأولى، نظرت إلى الكحل الرباني، والعينين السوداوين، والشعر الطويل الذي فكّت ضفائره من مدة ليست طويلة، وأمسكت بوسطها تعتصره بيديها، لترى مدى صغره، وتنظر إلى صدرها وتدويره ومؤخرتها وبروزها، إنه كما يقولون جسداً جميلاً رائعاً سوف يبهر الرجال حتماً ويتهافتون عليه ، بل إن الأمر قد بلغ أكثر من ذلك فبدأت تتحسس جسدها من خلف ملابسها.

شعرت بشعور لم تعتقد بوجوده من قبل، وارتمت على سريرها.

في اليوم التالي دخلت أمها إليها تخبئ شيئاً خلف ظهرها وتضحك.

-ايه يا أمي جيبالي طبق رز بلبن؟

- لا يا قره عين أمها جيبالك الموبايل اهو.

-قفزت نور من السرير، وتعلقت بعنق أمها وهي تقول: أقنعتي الحاج ازاي؟

-لا هو أتاخر ومعرفش جاي امتي وأخوكي من ساعه ما نزل معاه عالقاهرة معرفش عنهم حاجة وأنا خفت أبله المدرسة تزعل منك لو اتاخرتي ولا تكوني أقل من زميلاتك فشيعت لخالك عبد السميع وعطيته فلوس كتير وقلت له يشتريهولك، أغلى وأحلى نوع والله علشان خاطرك يا نورعينيه، أخد كتير بس ولا يهمك ميغلاش عليكي يا قلب أمك من جوه

أمسكت نور العلبة في يديها ونظرت إليه نظرة علي بابا في المغارة عندما وقعت عيناه على الذهب والياقوت والمرجان، وطلبت من أمها دون أن تنظر إليها وبعد أن شكرتها

كوباً من الشاي

-عبير؟ هو أنت عندك كمبيوتر؟

على باب شقتها سألتها بعد أن أفهمت أمها، وتحايلت عليها أن تذهب لعبير لتشرح لها إحدى الدروس،

-جوجل؟ دا ايه دا كمان

-دا الساحر إلى بيحقق لك كل طلباتك، بس هو لازم يأكل وهو بيشتغل

-ياكل ايه ؟

-بياكل نت

-!!!!!!!ايه ؟؟؟

أسبوع لم تنفك نور تذهب إلى عبير يومياً لتتعلم ..... تتعلم الحياة التي كانت قد وئدت بها عمداً.

-عوزه أسال على كمبيوتر، ويكون ينفع يتوصل عليه النت لو سمحت.

وقفت نور تسأل في إحدى المحلات وهي منقبة:

* * *

(١١)

سنين مرت بعد حادثة سنية التي تناستها منيرة، ولم تتكلم عنها أبداً ولكنها لم تنسَ أبداً عبارة

(سيدنا الحسين زارني في المنام)

في عمر السابعة عشرة أصبحت منيرة عاهرة بالفعل، وتعين عليها الذهاب إلى مستشفى الحوض المرصود لاجتياز الرخصة وختمها بختم الصحة، ومن ثم أمرت العايقة حسنية إحدى الفتيات بالذهاب معها بصحبة فتوة من الفتوات. وفي البيت

لفت منيرة عباءتها، وأخرجت كتفها الشبه عاري من الناحية اليمنى، ووضعت غطاء الوجه على عينيها بعد أن خرجت من الحمام صباحاً، وجهزتها الفتيات ووضعن لها الأصباغ على وجنتيها لتزداد جمالاً وبريقاً، ووسط زغاريد الفتيات، وضعت فطومة خلخالاً نحاسياً في قدميها وقبلتها بين عينيها.

-يحرسك سيدي البشبيشيء يا بنيتي ويبعد عنك عين الحسود

نادتها حسنية وأخرجت من صدرها قرطاً ذهبياً، وأتت بإبرة وضعتها على نار من أجل أن تطهرها، وتمسك بها إحدى الفتيات وتثقب حسنية أذنيها ثقبين، وهي تستنكر شعورها بالألم المصاحب له وتضعه في أذنيها وهي تقول:

-اجمدي أمال يا بت مافيش حلاوة من غير نار وأنت النهار ده عروسه، وأول درس لازم تتعلميه مني أنك تحطي في راسك إنك ح تبقي البريمو والزباين ح تجيلك من كل حتة في المحروسة فاهمة، أنت بنتي وتربيتي ، الوجع بسيط وبيروح لكنه بيخلف وراه شكل جميل ، فاهمة يا بت؟ مافيش حلاوة من غير نار وبكرة لما الفلوس والدهب تترمي تحت رجليكي كل التعب ح يروح ، ووجع ساعة ادامه نغنغه وعز وقيمه ومركز.. فاهمه؟ احنا بنشقى ونتعب لجل نعيش مبسوطين ومرتاحين البال، في غيرنا عايش ميت لكن إحنا عايشيءن ومتنغنغين وعندنا الذي يحمينا

منخفوش ولا نهابوش حدا .. فاهمة؟ إحنا أسياد نفسنا لا راجل يتحكم فينا يبهدلنا ولا حما سوا تتمريس علينا وتذلنا، فهمتيني يا بتي؟ احنا الذين نتحكم ونذل وشغلتنا دي أقدم شغلانه في التاريخ كلاته علشان تعرفي اد ايه احنا مهمين والذي بنعمله دا بطوله تتكتب في الروايات ويحكو بيها المغنواتية على الربابه في الموالد، إحنا أصحاب راس مال وراس مالنا حاجتين.... جسمنا ودماغنا، أوعي تبوظي واحدة فيهم، لا تهملي جسمك وتسيبه يبعجر بكترة الأكل وقله الشغل ولا تبوظي دماغك بشرب حشيءش ولا ويسكي، اشربي بس بالمعقول ،..احنا الذين نسيطر مافيش حاجة هي التي تسيطر علينا ، أتخنها زبون حتى لو جيلك من قصر الخديوي ذات نفسه تقدري تخليه مداس في رجلك، الراجل عقله كله وتفكيره في مزاجه مبيفكرش في حاجة تانيه ويهمه في المقام الأول، وإحنا بقى الذين بنظبط المزاج دا يبقى مركوب في رجلنا ولا لا؟ فهمتي يا بت ولا أقول من الأول؟

-فهمت يا أبلتي.. أجابت منيرة وهي تشعر بحرقة الإبرة في أذنيها، وما إن لامست القرط الذهبي المدلى منهما ابتسمت وشدّت هامتها قائلةً:

-وحياة سيدي البشبيشيء لفرحك بي يا أبلتي وأرفع راسك وسط كل عوايق كلوت بيه.

خرج محروس خلف منيرة وفوزية للذهاب إلى المستشفى

وخرجت منيرة إلى الشارع الرئيس لأول مرة في حياتها، أناس غريبة الهيئة لا تشبه زبائن الدار، سيدات وأطفال في أزياء لم تعتدها ، عربات أحصنة علمت أن اسمها حنطور، وهي عربات ذات حصان رشيق همام يتسابق مع الريح، ومحلات شتى وبضائع ، كأنها دخلت إلى عالم الأحلام التي تراودها، ولم ترَ لها مثيل وإن اختلفت الأشياء ولكنها الآن حقيقة وليست خيالاً ، سألت عن كل شيء ما هذا؟ ما اسمه؟ ماذا يفعل؟ إلى أن وصلتا إلى محطة الترام الذي سوف ينقلهم إلى منطقة السيدة زينب حيث المستشفى.

فشهقت شهقة نبّهت المارة حولها، وأفلتت عباءتها فبان ما تحتها، فصفّر بعض الرجال واقترب منهم عسكري إنجليزي قائلاً:

-إيه دااا؟ حديد بيمشي وفيه كراسي جوه؟ الحقني يا سيدي البشبيشيء

- بس يا بت ح تفضحينا حديد ايه دا التروماي، يخرب عقلك هو أنت يا بت جاهلة كده ازاي مش عارفه التروماي ولا الحنطور، ولا الصاغة أمال أنت كنتي عايشه إزاي قبل كده ؟؟

-وحياتك يا أختي أول مرة أشوفهم، هو أنا كنت بطلع غير للحمام أدام البيت وأرجع تاني ولا عمري رجلي خطت أبعد من الحمام ولا عمر حد قالي على الحاجات دي، أنا كنت قاعدة تحت رجل أبلتي فطومة وهي بقت كبيرة ومبتخرجش، وأبلتي حسنية عمرها ما خدتني معاها لما بتطلع.

- لا دا أنت حالتك صعبة أوي

أشاح محروس بعصاه فأبعد الرجلين، واقترب من العسكري الإنجليزي ليتكلم معه كلمتين ثم رجع للفتاتين قائلاً:

-ارفعي عبيتك يا بت يا منيرة ح تلمي علينا الخلق ، والله شكلك ح تتعبينا إحنا لسه أول يوم وزباينك جاهزة.

ثم نظر إلى العسكري الإنجليزي وقال بصوت عالٍ:

-أوعى تنسى العنوان يا جوني هوم العايقة حسنية الماظيه ثاني حارة على الرايت وأنت أنتر كلوت بيه استريت.

أقنعتها فوزية ومحروس أن الترام آمن لن يصيبها مكروه ، ولن تحترق داخله، وأخذت تنادي شيخها البشبيشيء طيلة الطريق إلى أن وصلوا إلى المستشفى.

وبعد أن أتمت الكشف، وأخذت التحصينات وختمت لها الحكيمة على التصريح، أطلقت فوزية زغرودته

مدوية.

-أنت كده دلوقت يا حبيبتي مقطورة برخصة.

ثم ضحكت ضحكة عالية رجت أركان مستشفى الحوض المرصود كله.

قبل أن يذهبا ليستقلا العفريت(الترام) كما أطلقت عليه منيرة أخرجت فوزية من صدرها تعريفة حمراء صحيحة ووضعتها في يد محروس، وهي تقول:

-اللهي يخالىك يا سي محروس ويكتر من خنقاتك، اللهي تبقي شيءخ الفتوات كلهم اللهي..

- ما تقولي يا بت عوزه ايه اخلصي؟

- تعريفه أهي بحالها وتسبنا خمس دقايق بس نزور الست، اللهي لا يسئك اللهي يبعد عنك ولاد الحرام ، الهي ..

-خلاص خلاص بس هما دقيقتين بس وحسك عينك حد يعرف.

ردّ محروس وهو يقلب التعريفة بين يديه منفرج الأسارير، ويضعها بين أسنانه ويعضها ليتأكد من جودتها.

أمسكت فوزية بيد منيرة، وعبرت بها الطريق في اتجاه المسجد الذي يضمّ ضريح السيدة زينب الذي سميت المنطقة باسمها

-رايحين فين ؟ تساءلت منيرة في بلاهة مفرطة.

-رايحين نزور ونقرأ الفاتحة.

-نزور مين؟!

- نزور الست

-الست مين؟

-الست... لا هو أنت كمان متعرفيش السيدة زينب؟

-لا

- نهار أسود ..... طب تعالي تعالي

وأمسكت بيديها وعبرتا السور الحديدي إلى أن وصلتا إلى الباب الخاص بالنساء.

-لفي الملايه كويس وغطي دراعك، واقلعي مركوبك وحطيه تحت باطك.

- ايه؟

-اعملي الذي بقولك عليه وخلاص.

وما إن خطت منيرة برجلها داخل الغرفة الخضراء ووقفت أمام الضريح، حتى شعرت أنها قد انتقلت إلى عالم آخر ، لم تشعر بجسدها بل شعرت بروحها تخرج من بين ضلوعها وتستقر فوق رأسها ، لم تسمع الجموع وهم يرجون السيدة زينب ويطلبون المدد، ولم ترَ المرضى وهم يُسقون بماء بجوار الضريح، ويمسحون رؤوسهم به ، ولم ترَ فوزية صديقتها التي

كانت ملاصقة لها وهي تتمسح بالقماش الأخضر، وتمسح بيديها على رأسها وجسدها، وتطلب من السيدة زينب العفو والسماح.

-قولي له يا أم الغلابة ما باليد حيلة، قوليله يسمحني وحياة حبيبك النبي اغسليني وطهريني وخديني في حضنك. كانت فوزية تبكي في رجاء وحرقة.

ولم تسمعها منيرة، لم تكن تسمع أو ترَ، ولكنها كانت تشتم تلك الرائحة التي جزمت أنها تشتمها كل مرة في حلمها الدائم في ذلك المكان العالي ذي الجدران، والمقاعد الخشبية، والسقف العالي ذي فتحات بزجاج ملون، ومنقوش بنقوش كبيرة، ومبخرة نحاسية كبيرة تخرج منها هذه الرائحة تحديداً.

بستان أخضر ذو مساحة كبيرة، وذو أشجار عالية؛ تقف عليها عصافير ملونة، وورود كثيرة تخرج منها رائحة عطور نافذة، وسماء زرقاء صافية، وهواء نقي منعش به رزاز من ماء بحر شفاف، وفراشات كثيرة تلتف حول فستانها الأبيض الطويل، يحملنه ويطرن

بها عبر التلال الخضراء المرتفعة، وينابيع من ماء تعكس صورتها فرحة مستبشرة، وخيال امرأة تقف من بعيد تفتح ذراعيها لتأخذها في أحضانها، ولكنها غير واضحة الملامح، وأخرى تجلس على إحدى المرتفعات، لا يظهر منها سوى نصفها السفلي تحتضن طفلة تضع وجهها في بطنها ، أصوات عذبة أناشيد غير مفهومة تهدئ النفس وتنشر السعادة بين الضلوع.

-منيرة ..منيرة ، ايه يا بت مالك متسمرة كده ليه ؟

كان حصاناً قد ركل شخصاً ما من الخلف فجأة فأوقعه على وجهه، وبهذه الطريقة استفاقت ورجعت إلى الواقع، فسألت فوزية وهي مازالت تشعر بمفارقة روحها لجسدها وهي حالة لم تشعر بها من قبل :

-إحنا فين؟

-دا ضريح السيدة زينب بنت سيدنا النبي.

-مين؟؟

-يووووووهووووو بقولك ايه كفايكي مين مين، تعالي دلوقت نطلع لسي زفت إلى ح يفرتكنا بره وبعدين أقولك.

وقبل أن تخرج أمسكت بالقماش الأخضر فشعرت أن هناك يد قد أمسكت بها فاقشعر جسدها وارتعشت.

-ها خلاص قرايتو الفاتحة، أوعو تكونوا نسيتوا تدعولي

قال محروس وهي يضحك ضحكة تظهر أسنانه التي قاربت على السواد وتكسر أغلبها.

-قرينا ايه؟؟

-شششششش قلت لك اسكتي دلوقت خلينا نوصل بالسلامة بس

- في حاجة ولا ايه مالها البت منيرة متخشبة كده ليه ومتنحة

-مافيش يا اخوي متاخدش في بالك يالله يا أخوي وقفلنا أي ركوبه تروحنا بلاش التروماي لحسن البت مش ناقصة

قالت فوزية وهي تسحب منيرة من يديها كأنها تسحب أعمى.

في طريق العودة ازادت حيرتها (سيدنا النبي) (الفاتحة) بجانب (سيدنا الحسين)الذي زار ذات مساء و(السيدة زينب)

من هولاء ؟ وماذا حدث لي هناك؟ وما هذا المكان الذي رأيته؟ وشعرت بكل ما كان فيه، بل اشتمت رائحة البخور ورأتهما، ؟؟من هما ؟ وماذا كل هذا؟

أسئلة كثيرة كادت أن تفتك بعقلها فأصرت على الذهاب إلى مخدعها، لعل النوم يساعدها أو يشفي عقلها من الاضطراب.

* * *

(١٢)

بعد شهر فهمت نور وتعلمت ما كان يدور حولها، وهي سجينة بيتها وأسوار معهدها الأزهري والحياة التي سقاها إياها والدها في حقن معقمة، مرّ شهر كامل وهي تستقي من الحاسوب الذي أحضره أخوها عبد الله لها، بعدما أقنعته عبير وشرحت له جهل نور بأمور الدنيا ويجب مساعدتها، وركّب لها وصلة شبكة الإنترنيت، حيث أجرها بالشهر من أصدقائه كمشروع لأهل المنطقة، دخلت على كل المواقع، وشاهدت الأفلام، وقرأت المقالات، وسمعت الأغاني بل حفظت أسماء المطربين، وتوقفت كثيراً عند حبيب زميلاتها في المدرسة (تامر حسني)، وشاهدته بالقميص الملون المفتوح، بل اقتنعت أن زميلتها محقة فيما وصلت إليه من حالة غرام واضح.

وكانت عبير بمثابة القائد الذي يعلم جنوده فنون القتال، ليس ذلك فحسب بل سعت إلى شرح وترجمة بعض المقاطع بالإنجليزية أيضاً.

-ايه يا بنتي الجهل البين الذي أنت كنتي فيه دا، أنت كنتي عيشة ازاي؟

-لا مهو واضح اهو أني مكنتش عايشة، بس أنا كنت بعمل كل حاجة علشان أرضي ربنا ومش عارفه الشيطان الذي اسمه النت دا مين الذي اخترعه؟ دا خلا العالم مفتوح كأننا قاعدين في أوضه نوم الناس وبنتفرج عليهم وبيتفرجو علينا ، أستغفر الله العظيم.

-بصي يا نور مرة سمعت الشيخ الشعراوي بيقول زي السكينة ما بتدبح لكنها بتساعدنا نقطع بيها الحاجات الصعبة، خدي الذي يفيدك وملكيش دعوة بالذي يضرك.

-وأنت تعرفي الشيخ الشعراوي الله يرحمه بقى ويغفر له من فين ؟

-ليه هو أنت فاكرة أن أنتم بس المسلمين ؟

-يعني لا شفتك بتصلي ولا لابسة حجاب أصلاً

-طيب يا نور كتر خيرك....هو الدين عندكم شكل ومظهر بس لكن (من أتى الله بقلب سليم) دي ما وردتش عليكم قبل كده؟

-يا بنتي في أساسيات لا غنى عنها ولا يستقيم القلب دونها.

-أولاً أنت متعرفيش أنا بصلي ولا لا ومش ح أقولك علشان دي حاجة خاصة بيني وبين ربنا وبس ، ثانياً أول الشرك بالله لما تحسي أنك أفضل من حد، ولا مكانتك عند الله أعلى منه، وافتكري قصة سيدنا موسى والخضر وكان ايه أصلها ..لما سيدنا موسى عليه السلام قال أنا أعلم خلق الله فبعت له ربنا سيدنا الخضر الذي أعلم منه علشان يعلمه..صح؟

-المهم دلوقت ، أنا عوزه أتعلم ازاي أعرف الأحاديث قوية ولا ضعيفة، وعوزه باب الفتاوي، وكل الأبحاث التي بتتكلم في العقيدة والشرع ، عوزه أتعلم كل حاجة كل حاجة، ومتخفيش مش ح أتعبك ولا أعطلك كتير أنا بفهم بسرعة ولله الحمد.

-لا متقوليش كده إحنا أخوات وأنا تحت أمرك في أي وقت.. بس أي سؤال عن الأحاديث أو أي بحث في أي مجال ديني أو غيره ح تلاقيه على جوجل.

-أنا حبيت الحاسوب دا اااوي.. وضحكت نور وهي تنظر إليه نظرة عشق وإعجاب.

بهرت نور بالممثلات المصريات والأجانب، وتذكرت أن إحدى زميلاتها كانت تقول لها: إنها أجمل منهم جميعاً، رأت نفسها فاتن حمامة في أحضان عمر الشريف، ورقصت بدلع شاديه وهي تتمايل على رشدي أباظة، أحبت الموسيقى والغناء والرقص، واشترت لها عبير سماعة أذن كيلا تلفت الأنظار إليها. كانت الأم تدعو لها ليل نهار على إخلاصها في الدراسة، وإغلاقها حجرتها كل هذا الوقت مستغرقة في مطالعة دروسها.

-يا رب يديكي على اد تعبك ومجهودك يا نور يا بنتي.

-يا رب متسمعش منها.

قالت نور وهي تضحك:

وذات مساء حين كان القمر بدراً وقفت نور بجانب النافذة المطلة على الشارع، تنظر إليه نظرة عشق ولهفة، كأنها لم تنظر إليه من قبل ولم يلفت نظرها، أين كنت من قبل وفيمَ أصبحت ؟ لقد أحببت حياتي السابقة، ولكني لم أكن أعلم أن هناك حياة أخرى، علمني أبي أن هذه الحياة محطة اختبار وأن الحياة بنعيمها في الجنة عند الله، وإني أرى أن هذه هي الجنة بكل نعيمها. .

أين الصواب وأين الخطأ؟ هل عبير على صواب؟ إنها تعرف الله وتعلم قصص القرآن، وأنا التي كنت أعتقد أنها بعيدة كل البعد عن ديننا، وكذلك تعيش حياة سعيدة، وتحب عبد الله أخي، وهو ينوي الزواج منها كما أخبرني، لماذا أقنعني أبي أنها رجس من عمل الشيطان، وأنه يتعين علي البعد عنها لأفوز؟ هل كنت على صواب؟ هل اخترت حياة على أساس القرب الخالص لا أبغي سوى وجهه الكريم ، أو كنت كببغاء أردد ما يقوله أبي دون وعي؟ أو كنت كالطاووس المغرور، أحفظ بعض الأحاديث والآيات ودروس أبي

وشيخه، وأتفاخر بالمعرفة لأنال الإعجاب والتصفيق، وأرى الانبهار في أعين الجميع؟

لماذا لم يعش أبي هذه الحياة، وقد كان كما علمت ابن عائلة ثرية؟ ولماذا تدفن أمي نفسها بين المطبخ والأولاد وزوج تزوج عليها عدة مرات، ويزورها كالغريب كل شهر مرة واحدة؟ أين الأموال التي ورثها أبي عن أبيه؟ وكل هذه الأبراج

التي يشيدها؟ لماذا لم يدخلني مدارس أجنبية مشتركة كعبير؟ لماذا لا نملك تلفازاً؟ أو أي من تلك المحدثات في كل شيء؟ لماذا لا نلبس من أغلى المحلات؟ وما هذا الذي نلبسه ؟ لقد قرأت وسمعت بأذني عن شيوخ كبار أكبر من أبي وشيخه أن النقاب ليس فرضاً، بل هو فضل لمن أرادت التشبه بنساء النبي، أي إنه من حقي ألا أرتديه، من حقي أن أعيش مثل هؤلاء الفتيات، أستمتع بالدنيا، أُحِبُّ وأُحَبُّ، وأحضن، وأجرّب القبلات المسروقة تحت الدرج أو فوق السطح أو خلف البناء كما تروي لي كل يوم فتاة عن مغامراتها مع حبيبها، أو كعبير وأخي عبد الله ،

كيف له وهو ابن ذات الأب، وذات التربية، وذات البيت أن يستمتع ويتمتع بحياته وأنا لا؟

هل لأن الرجال قوامون علينا؟ بما أنفقوا، أعلى منا درجة بالتقوى والانفاق، هذا ما علمني أبي من الأحاديث والقرآن كما قال

ماذا أفعل أنا الآن؟ فأنا أريد أن أعيش مثلهن جميعاً عبير ورفيقاتي في المدرسة وهؤلاء اللاتي أراهن على شاشة الحاسوب والشارع والإعلانات، ولكني لا أريد أن أغضب ربي أو أضل الطريق.

ثم تذكرت تلك الخاطرة لإحدى الكاتبات، والتي لم تستطع تذكر اسمها لكثرة ما قرأت على إحدى المدونات:

حالة من الملل تغلفني وتخنق كل جوارحي،

لماذا أطلقت يدي والآن تحبسني، فأنا روح هائمة منذ ولادتي،

كنت أستشعر نقصاً ما ، ولكني كنت أتجنب التفكير فيه،

ذات يوم وأنا في قفصي الذهبي الصغير، أرفرف في أرجائه معتقدة أنه عالمي كاملاً، سعيدة أغرد لكم كل صباح ، وأكتفي بطعامي وشرابي المخيل إلى أنه طعام الجنة كله،

هذا اليوم أخطأت خطأ فادحاً، سيظل ثمناً تدفعه طويلاً،

هذا اليوم الذي قررت فيه أن تأخذني في قفصي لتضعه على حافه الشباك ، كنت في لحظتها تعتقد أنك تقدم لي جميلاً، شاهدي من بعيد ، وحذاري كل الحذر أن تستغرقي في الرؤية أو أن تأخذك إلى احلام بعيدة،

تركتني وذهبت ويقينك يحدثك أني عصفورك المطيع ، وأن شياطين الأفكار قد وأدتها بداخلي منذ زمن بعيد ،

تركتني وذهبت قبل أن يصلك صوت شهيقي المفضوح،،

ما هذا،؟؟؟ أحلم أنا ، ؟؟

هناك عالم آخر غير قفصي الذهبي الجميل ،

سماء وبحار وعقول ،

ألوان وطعام وأرواح تجول،

تنطلق في حرية بغير قيود

تضحك وترقص فتضيء السماء وتنفجر النجوم،

لماذا أنا هنا وهم هناك ،،؟

يجب أن أخرج إلى عالمهم المجنون،

فهذا هو عين العقل الذي أريد

أخرجني أستحلفك بكل عزيز،

ليس هذا القفص الذهبي بيتي ولا طعام جنتك ما أريد،

أخرجني ولن تندم أبداً ، فسأرجع لك ولكن لست هذا العصفور،

سأحيا بروحي المكبوتة منذ عصور

سأنطلق وأرفرف بجناحات جديدة ليست من صنعك أنت،

ولكني سأعود،

فقط ساعدني على الخروج ، ساعدني على الخلود

نعم أريد أن أتحرر، أن أكون مثل كل الفتيات حولي، أنا فقط الغريبة المنبوذة، ولا أستحق هذا فأنا جميلة وهذا ما أحسد عليه من قبل أقراني، فلماذا أحبس نفسي في هذا القفص، ثم إني ما زلت صغيرة وسوف أعود يوماً ما لنقابي، ولم أترك يوماً صلاتي ، أتذكر الآن بعض الأحاديث التي كان والدي وشيخه يتجنبون

الإجابة على سائليها عن رحمة الله وغفرانه ومحبته لعباده كلهم ، كنت أسمع شيخه يحدثه في طريق العودة قائلاً:

-للأسف الناس لازم تخاف ولازم تعرف العقاب قبل الثواب ، دول فراعنة لازم يتعاملوا معاملة شديدة ، عارف لو عرفوا كل الأحاديث دول ممكن ينحرفوا ويقولو ما بكره ربنا يغفرلنا، لا... مينفعش معاهم دول إلا آيات العذاب والخوف،

بس كده نبقى في المضمون.

كانوا مخطئين بالتأكيد، ومن ثمّ فكل معتقداتهم خاطئة، ولن أؤمن بها بعد الآن، لماذا يجب عليّ تصديقهم في كل ما قالوه، وقد ثبت أنهم كانوا يخادعون الناس ولا يقولون قول الحق كاملاً ، وضعوا أنفسهم في مكان أعلى من البشر، وقرروا ماذا يلقون إليهم من علم وماذا يمنعون ، استحكموا مورديهم كما استحكموني وأقنعوني ، الآن أنا لدي ما يبرئوني

ويعلمني، يجب أن أصل إلى قناعاتي بنفسي وليس بآرائهم.

الآن أنا لا أخاف، من حقي أن أعيش وأتحرر، لا شيء سوف يوقفني، أرغب في هذه الحياة، أرغب في رجل يقبلني، أشعر بحرارة شفتيه على شفتي، يتحسس جسدي، أريد أن أعيش تلك المشاعر، من حقي أن أعيشها، ولمَ خلقنا الله بغريزة جنسية إذا كان سيحرمنا منها؟

غداً سوف أخرج دون نقاب أو حجاب، وأرتدي القصير والحمالات الرفيعة ، سوف أدخن السجائر كتلك الفتيات في الأفلام الأجنبية، وكاللواتي رأيتهن في النادي اليوناني عندما أخذتني عبير هناك ، عبير نفسها تدخن وأخي عبدالله يعرف ولا يمنعها ، لقد رأيتهما معاً بملابس البحر وهما يضحكان ويلعبان ، لم أرَ أحداً في سعادتهما من قبل ، وسوف أبهر الرجال، وأمشيء في الشارع فقط لأرى نظرات إعجابهم ، ولن أوافق إلا على أكثرهم وسامة وغنى ، يأتي ليصحبني من المدرسة بسيارته الحمراء المفتوحة، وأرى الفتيات يعضضن

على شفاههن من الحسرة والغيرة ، ولم لا يكون (تامر حسني) نعم هو هذا الذي سيقع في غرامي ويرجوني من أجل الموافقة على الخروج معه ، سوف نذهب إلى المنتزه ويجري ورائي بين الشجرات، وأنا أرتدي فستاني الأحمر القصير، وشعري يطير في الهواء، فيمسكني من خصري ويعتصرني ويضمني إلى صدره، فأتحسس تلك الشعيرات البارزة خلف قميصه فيضع شفتاه على شفتي، ويغرقني في قبلات عميقه كتلك التي تتكلم عنها الفتيات، أو تلك التي رأيتها في المقاطع الساخنة على الحاسوب وسوف ...

استيقظت نور على أصوات صراخ مدوية في البناء، فخرجت من حجرتها لتجد أباها واقفاً وبجانبه أخوها الأكبر عبد الرحمن، وأمها ملقاة على الأرض مغشياً عليها، وصراخ قوي يلف الأرجاء، أيقنت فيما بعد أنه خارج من شقة عبير.

مرت ثلاثة أيام وهي في حالة ذهول تام ، لا تعلم إن كانت ما زالت تسمع وترى، أو أن هذا المشهد سيظل

ماثلاً أمام عينيها لا ترى غيره وسيبقى الصراخ يملأ أذنيها.

مشرحة تحوي أناساً كثيرين وعساكر وضباطاً شيوخ وسيدات متشحه بالسواد، ونقالتين عليهما شبه جثتين مقطعتين، يظهر منهما القليل من الملامح بين الدماء والعظام المتكسرة واللحم الخارج من مكانه،

وخبر يدور حول فتى وفتاة دهسهما قطار سريع، وهما في سيارة أحد أصدقائهما عائدين من منطقه العجمي البعيدة، بعد أن أمضوا سهرة ماجنة على إحدى شواطئها،

وأن هذا عقاب الله لهما.

عبير وعبد الله

* * *

(١٣)

شهر كامل ومنيرة تحاول أن تنفرد بفوزية في مكان بعيد عن فطومة التي كانت تلازمها، تسألها وتجيب وتندهش كل يوم أكثر من سابقه.

روت لها فوزية أنها عاشت مع أسرتها إلى الثالثة عشرة من عمرها،حيث كانت ابنة لشيخ عمود في الأزهر، أنهى تعليمه وعمل في الجامع الأزهر لسنوات عدة قبل أن يقرر أن يعود إلى قريته، ويصبح شيخاً للزاوية الوحيدة بها، والتي يتخذونها كمسجد وكاتباً، ومن ثم يلتقي بالأطفال الصغار بعد صلاة العصر على حصيرة خشنة يجلسهم عليها، ويبدأ تعليمهم دينهم ويحفظهم آيات الله بكل سهولة ويسر.

-الله خالقنا، ومحمد رسولنا، والقرآن كتابنا، والصحابة سادتنا، وأهل البيت أحباؤنا

وكان يجمع رجال القرية ونساءها بعد صلاه العشاء، ويعلمهم كيفية الوضوء وأخلاق الإسلام؛

لا تسرق لا تكذب لا تغتاب أحداً، وعامل الجميع بمحبة، لا تنظر إلى امرأة جارك، أطعم الفقير وإن كنت فقيراً، أحبّ الخير وابتسم في وجه أخيك، أحب اللّٰه ورسوله، وأهل بيته، واطلب الشفاعة وادعُ بيقين، اللّٰه جميل يحب الجمال، عش في سلام وهدوء، وتغاضى عن الصغائر، وتعالي في التجلي، واطلب العلم ولو كنت في مكان بعيد ، نظفوا قلوبكم من الخبائث كما تنظفون بيوتكم .

كنت أتعلم من أبي وأحضر مجالسه كلها، شعرت ببركة اللّٰه تسري في بيتنا، أخي وأمي.. كان كل شيء على ما يرام إلى أن خرجت في يوم لم تطلع عليه الشمس ألعب مع بعض الفتيات، وابتعدنا قليلاً عن زاويتنا، فخرج علينا بعض قطاع الطرق وخطفوني وفتاة أخرى، وربطونا إلى أن ابتعدوا عن القرية، وما إن تحررنا حتى وجدنا أنفسنا في سوق تباع فيه الفتيات والغلمان الصغار ، مرت علي أيام أليمة بكيت كثيراً وهممت أن أصرخ حين عرفت المصير الذي أساق إليه ، وأدركت أن لا مفرّ، وأني قد بعدت كثيراً عن بلدتي

وأهلي، فاستيقظت هنا في هذا الدار ومع هؤلاء الفتيات، وآثرت السلامة بعد أن عرفت قوانين هذا البيت وعذاب الفتوات لأي منّا إن فكرت مجرد تفكير في الاعتراض على أي شيء..... وقلت فليأخذوا جسدي كما يحلو لهم، ولكن قلبي سيظل معلقاً بالله ورسوله وأهل بيته.

-المكان الذي بلاقي نفسي فيه يا منيرة لما أروح أزورهم بحس أن روحي اتردت لي وأنهم شايفيني وسمعني وحاسين بي، المكان الذي بحس أنه طاهر عن كل الوسخ الذي إحنا عايشن فيه دا ، القرب من ربنا يا منيرة عوز قلوب بتحس أكتر من عقول بتفهم ، الله محبة وأنا بحبه وبكلمة كل ليلة ، أنا مش بحس بأي زبون داخل على ولا بيقول ايه ولا بيعمل ايه ، أنا بكون في مكان تاني ، بروحي مش بجسمي.

نزل كلام فوزية وما قالته على قلب منيرة كبرميل مغلق منذ سنين على أرض جدباء عطشى وفتح فجأة، فأخذت ترتوي منه بكل ما أوتيت من قوة.

وفي ليلة كان القمر فيه بدراً وقفت منيرة خلف نافذتها التي تطل على الشارع تنظر إليه في لهفة وشغف،

كيف لم ارَك من قبل؟ كيف لم أستشعر حلاوتك وقربك من قبل؟ أنا لم أعرف أي شيء عن طفولتي ولا عن والدي، لم أسأل عنهما ولم يحدثني أحد يوماً عنهما ، هل كنت طفلة لشيخ طيب، وأم فلاحة تعشق أولادها وترعاهم ؟ أكنت ابنة غانية سابقة وأورثتني عملها ؟ أم تراني كنت ابنة عائلة ثرية وتهت في أحد الموالد ؟ ربما أبي كان ضابطاً إنجليزياً أو من أصحاب المعارف؟ أو ربما كان من بيت الخديوي بذاته العالية، أو ابنة إحدى المحظيات في قصره؟ ماذا كنت وكيف انتهى بي الحال إلى هنا؟ يجب أن أسال فطومة في الصباح.

أحبت منيرة كلام فوزية عن الخالق، وكيف خلقنا، وعن محمد وعيسى وموسى، واستوقفتها قصة سيدنا عيسى المسيح وأمه البتول مريم، وحين روت فوزية القصة كانت منيرة تتخيل وتشاهد السيدة البتول

مريم في مخيلتها، وترى شبيهاً لتلك السيدة التي تراها في أحلامها، كما رأتها عند زيارة السيدة زينب.

الله محبة ... أحبت هذا الحب، الحب الخالي من الأغراض، الحب المنزه. حب الإله الحامي.. إنه الله الذي يحمي وليس إبراهيم وفتواته. إنه الله الذي يرزق وليس هذا الزبون أو تلك العايقة، يجب أن أحب الله كما تحبه فوزية، ولكنها ما زالت تجهل الكثير، ولا تجد الجواب عند فوزية التي أبعدتها العايقة حسنية عندما رأتها تكثر الجلوس مع منيرة.

-بنت يا منيرة، مش عوزاكي تقعدي مع البت فوزية كتير، دي بت كدابة وكياده وبتكرهك، دي ليها في الأعمال السوداء خلي بالك.

-يعني ايه أعمال يا أبلتي؟

-يعني تروح اللهم احفظنا لسحرة ومشعوذين يربطوكي أو يسخطوكي قرد

تفت منيرة في صدرها وقالت:

-يادي المصيبة قرد؟ قرد في عينها

-اديني قلت لك، وحذرتك....البت دي شريرة ووحشه ومش بتحبلك الخير وشايفة عليكي زي النحل والدهب بيترمي تحت رجليكي، غارت منك، وقالت تمسك ودنك وتقولك أي كلام، أوعي تصديقيها؟ أوعي يا حبيبتي اسمعي كلامي دا أنت بنتي وحبيبتي وكلهم بيغيروا منك علشان عرفين أنت غلاوتك عندي اد ايه.

انتهزت منيرة الفرصة عندما رأت العايقة في الطف حالاتها فباغتتها بسؤال:

- صحيح يا أبلتي هي أمي وأبوي مين؟ عمرك ما حكيتي لي عليهم

فوجئت العايقة حسنية بالسؤال فما كان منها إلا أن نادت إحدى الفتوات تسأله تغيير الجمرة التي توهج نرجيلتها، وتتعمد شجاره لتبعد السؤال عن تفكيرها، وكيلا تجيب منيرة عن سؤالها، فقد انشغلت في خلاف

مختلق مع الرجل على أشياء أخرى، وأمرت منيرة بالانصراف الآن حتى تتفرغ لعملها ومشكلاتها.

لم تجرؤ منيرة على سؤالها مرة أخرى، كما لم تعد ترى فوزية كثيراً.

ولكنها مازالت في حيرتها تائهة، وفي تلك الليلة التي كانت تقف أمام نافذتها تناجي البدر سمعت صوتاً يقول تلك الكلمات، فلم تعلم إن كان الصوت يأتي من الخارج أو من قلبها.

تائهة تبحث وسط الأبواب عن بابٍ تحبه

تعلم منذ الصغر أنه باب الوصول إليك،

أبواب كثيرة ومفاتيحها ضائعة بين أراء وأفكار وأزمنة،

لكل محب وعاشق، تظل أنفاسه شاهدةً عليه ، باحثاً عن مفاتيحه ، طارقاً كل المجرات ، تائهاً بين النجوم ،

رابضاً فوق الجبال ، باحثاً بين مئات الكتب والمجلدات، صائماً، تائباً، حامداً، حاجاً ، مستغفراً،

فكل له باب .

ولكنها لا تعلم أي باب هو باب النجاة ، هو باب الخلاص ،

تقف عليه ذليلة منكسرة ، يرتجف قبلها عشقاً وشوقاً، تبكي بكاء الأم بعد رحلة المخاض وطفلها بين ذراعيها معافى ،

بكاء المحب المولع بشوق لحبيبته العائدة إليه بعد غياب ،

بكاء الغريق الذي شارف على الموت ، ولاح الشاطئ فجأة أمامه،

ولامس طوق النجاة ،

أقف على بابك سيدي ومولاي، أرجو رحمتك ، أتشبث بحباله ، أنام تحت جدرانه ما تبقى لي من أنفاس،

الأبواب كثيرة، ولكن ليس لي منقذ سواه،

مخطئة أنا ، مذنبة، عاصية، مسلوبة العقل ، تخالجني الشياطين ليل نهار، وتسحبني إلى بئر سحيق ،

لتبعدني عن الباب، ولكنها لا تعلم أنها تسحب جسداً عقيماً فانياً ، وأن روحي ذائبة عندك هناك ،

فيا سيدي ومولاي وخالقي،

اقبلني،

افتح لي باب رحمتك،

فأنا قابعة تحته مذ خلقتني، لا أعلم غيره سبيلاً،

فمن باب الرحمة ننجو ، ويشفى كل عليل،

فمن باب الرحمة نعلو ، ويسعد كل قلب حزين

فمن باب الرحمة نفوز، فوزاً يليق بالمتعلقين ،

فيا ربي افتح لي ولكل مسكين ،

فرحمتك وسعت كل شيء،

وهذا قولك الكريم ،

لم تعد منيرة كما كانت منذ هذه الليلة ، كانت تشعر بذلك القرب والحب وإن كان ينقصها المزيد، أخذت تعدّ الأيام والليالي متمنية انقضاء الأشهر الثلاثة بسرعة لتذهب إلى الاسبتالية من أجل أخذ التحصينات وعمل التحاليل، وكانت هذه فرصتها في الذهاب مرة أخرى إلى مسجد السيدة زينب، كما كانت تنوي الذهاب إلى مسجد الأمام الحسين أيضاً بحجة شراء بعض قطع الحلي من الصاغة الملاصقة للمسجد.

-من شارع الموسكي قبل جامع الأزهر حتى شارع خان الخاليلي والنحاسين آخره ح تلاقي حي الصاغة وعلى ناصيته المسجد، أي حنطور ح يدلك بس لازم تعرفي أسماء الشوارع لحسن يبان عليكي أنك خيبه

ويضحكوا عليكي ، وزي ما قلت لك خلي الواد سكسكه هو الذي يروح معاكي مشوار الاسبتالية علشان ميتكلمش كتير، هو بيحبك وطيب مش ح يفتن عليكي وأي فتوة لو خرج معاكم اديله مليم ولا اتنين مش ح يمانع.

قالت فوزية بعد أن منعت من الذهاب معها أو حتى الجلوس معها كثيراً بعدما كانت تمني نفسها بهذا اليوم وهذه الزيارة، غداً.. غداً سوف يحين اليوم المنشود ويحين ميعاد زيارتها لبيوت أولياء الله الذين ترغب في معرفتهم والقرب منهم.. غداً سوف تذهب للتطهر لتسألهم وربما تراهم مرة أخرى، تلك السيدتان اللتان رأتهما في أحلامها وفي زيارتها الوحيدة للسيدة زينب، غداً سوف تشعر بتلك المشاعر وسوف تترك روحها تعلو على جسدها، وتستنشق العبير ذاته، وتمرح في تلك الغابة الخضراء، وتصاحب الطيور وتلعب مع الفراشات.

غداً تتلمس الغطاء الأخضر، وتشعر بتلك اليد التي أقسمت ألا تدعها تفلت منها هذه المرة وسوف تتشبث

بها، ربما لا تعود وتلزم المكان، وتلبس كتلك السيدات والرجال الذين يعيشون حول المقام، ويرتدون ملابس خضراء من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، ويضعون الكثير من السبح الخشبية حول أعناقهم ويرددون

- مدد مدد يا صاحب المقام ..... الله الله الله

اسم لطالما زلزل كل خلجاتها، وأشعرها أنها تطير فوق الأرض فلا ترى عسكري إنجليزي يعتليها، ولا ثري يلقي بالأموال تحت قدميها.

غداً سوف تذهب..... وغداً سوف تعرف إجابة سؤالها التي وعدتها فطومة أن تجيب عليه عند عودتها من الاسبتاليه

استيقظت منيرة على صراخ هائل ولطم وهرج شديد، فخرجت مسرعة من حجرتها لتستبين ما يحدث،

عاشت ثلاثة أيام ذاهلة لا يفارق خيالها المشهد، ولا تسمع سوى أصوات الصراخ.

جثة هامدة غارقة في الدماء، مقطع وجهها وملقاة على الأرض أمام الجميع، وفوزية جاثمه فوقها ممسكة بسكين كبير تصرخ في هستيريا غير محددة الكلمات،

وحديث يدور حول خلاف شديد دار بينهما لا يعلم أحد مغزاه،

والقتيلة الملقية أمام الجميع مغطاة بالدماء كانت

فطومة الإسكندرانية

* * *

(١٤)

مرت ثلاث سنوات على منيرة بعد تلك الليلة المشؤمة، لم تنسَ يوماً ما حدث، فقد كانت فطومة بمثابة أم لها، لم تعلم أماً سواها، فقد رعتها منذ أن وعت هذه الحياة، تنام بين ذراعيها كل ليلة، تضفر لها شعرها الأسود الطويل قبل أن تقصه لها ذات ليلة عندما بلغت السابعة عشرة، لأنها أصبحت الآن مقطورة، ولم يعد الشعر الطويل مناسباً لها فهو للفتيات الصغار فقط، تهتم بها وترعاها حق الرعاية، لم تعلم لماذا قُتلت بهذه الطريقة البشعة، ولم تكن بعد الحادثة في حالة صحية أو نفسية جيدة لتستبين الأمر، بعد أسابيع قليلة تناهت إلى سمعها قصص كثيرة ، مثل :أن فوزية كانت مصاحبة لجن أمرها أن تقتل كل من في البيت، وبدأت بالأكبر سناً، أو أنها كانت متصلة بأولياء غضبوا عليها، فأحبت أن تتطهر فقامت بقتل فطومة، وكانت تنوي قتل كل الفتيات لولا صرخات فطومة التي نبهت الجميع، ولكنهم لم ينقذوها فقد نفد الوقت قبل وصولهم إليها، وقالوا: إن فطومة كانت قد اكتشفت

سراً خطيراً عن فوزية وأرادت أن تفضحها فقامت الأخيرة بقتلها ، وقالوا: قد أصابتها لوثة عقلية مفاجئة ،

لم تهتم منيرة ولم تقف عند أي من تلك الروايات، ولكنها شعرت بغضب عارم من فوزية، وأنها كما كانت السبب في القرب من الله والفهم لبعض الأمور، أصبحت الآن العكس تماماً، فقد كفرت منيرة بكل ما قالته فوزية لها ذات يوم، وبكل معتقداتها، وكيف لا؟ وهي قاتلة، قتلت أحب إنسانة لديها في الحياة .

أطاحت منيرة في تلك السنوات بكل رخيص وغالٍ ، أصبحت جبارة لا ترحم ، استغلت جمالها أسوأ استغلال، وكانت بالفعل البريمو في البيت ، كلمتها بعد كلمة حسنية مباشرة ، سيطرت على الفتيات وأصبحت تستلذ بتعذيبهن، وتحميلهن ما لا طاقة لهن به ، لا تكترث لبكاء أو استعطاف، واعتمدت حسنية عليها في انضباط العمل، وتجهيز الفتيات كل ليلة، وتوزيع الزبائن عليهن، ومجازة من تقصر في عملها، كانت تفتري عليهن كذباً لضربهن أو حبسهن في حجرة

الغسيل مع سنية العرجة عدة ليالٍ قبل أن تسمح لهن برؤية ضوء النهار مرة أخرى ، أدمنت الحشيش والخمر وبالغت في شراء الذهب وجمع الأموال،

-يعني ايه يا روح أمك مش قادرة تشتغلي الليلة دي، دي ليلة خميس يعني ليلة مفترجة وكلها خيرات، الفلاحين المتريشين بينزلو دايماً يوم الخميس ياخدو مزاجهم، والعساكر والضباط الإنجليز بيظهر كتير الليلة دي، مافيش عندي دلع يا بت وإلا وحياة سيدي البشبيشيء أسلط عليكي الواد محروس يدغدغ لك عضمك وتبقي عبرة لمن يعتبر، ولا أنت عارفة أرميكي تحت في أوضة الغسيل مع سنية وأنت بقى فاهمة.

-والنبي يا أبلتي منيرة سخنة مولعة حتى جسي؟

نبي؟ نبي مين يا بت؟ نبي لما يشلك يا أختي ، مافيش ولا نبي ولا ديوله

-سخنة وبرتعش يا أبلتي والله

-سخنة ولا متنيلة بنيلة ح تشتغلي يعني ح تشتغلي، هو حد قالك أننا فتحين اسبتاليه ولا ملجأ يتامي، امشي انجري من ادامي جهزي حالك وشربي لك كوباية زفت لمون، ولا حطي على دماغ أهلك فوطه سقعه تريحك، جتكم الهم نساوين عوزه الحرق، فزي أومي حرقتي دمي يحرقك بجاز.

ثم نادت منيرة سكسكه المخنث، الذي كان يعمل لخدمتها ويجلس دائماً تحت قدميها:

-قوم يا واد جهزلي الشيشه وزود لي العيار سنتوفه لحسن البت اعتدال بوظت لي التعميرة التي فاتت.

قامت اعتدال من أمامها تتمتم بصوت منخفض:

-الهي وأنت جاهي تولعي يا شيخة قبل ما تقومي من مكانك، ياخدك يا بعيدة مقطعة حتت، ولا يعرفوا ليك طريق جرة.

لم تعد تقف أمام نافذتها عند تمام القمر، ولم تعد تنظر في اتجاه المسجد لمقام السيدة زينب، كلما ذهبت

لعمل التحاليل وختم الرخصة، بل كانت تتعمد أن تلبس كل ما هو شفاف وملفت، وتسقط العباءة عنها عمداً وتتمايل وتختال لجذب زبائن أكثر وأكثر، حتى اشتهرت في أنحاء المحروسة كلها بأنها الغانية الأكثر إثارة ودلالاً، وكان زبائنها من الأثرياء والمشاهير.

كانت تعريفة منيرة هي الأغلى بالطبع ولا يستطيع دفعها سوى ميسوري الحال فقط.

وكانت المعلمة حسنية تفتخر بهذا دائماً.

وذات مساء بعد أن هدأ البيت من الزبائن، واجتمعت الفتيات في صحن البيت يتسامرن ويروين للعايقة قصص هذه الليلة،

-أكتر حاجة بتبسطني يا أبلتي لما تلاقي سي الأفندي إلى شنبه نص وشه وعامل لي فيها سبع البرمبه ويدخل عليكي تلاقيه منيل بنيله وملوش في حاجة و.....، وضحكت ضحكة خليعة رجت الأركان.

تقول إحداهن:

-لا ولا التاني إلى يا ماهنا يا ما هناك وتفتكريه من حاشيه الخديوي ولا ضابط كبير في الجيش ويدخل يقول لك اضربيني هزئيييني أصلي بحب التي تشتمني وتطرقعني بشبشبها.

-أنا بقي صديقه الطلب هههههههههه، معرفش ليه دائما يقعو في أورعتي، غلابة أوي يا ولاداه ولازم تاخديهم كده من ادهم وتفهميهم يعملو ايه ، هههههههه كان عروسة جديدة في ليلة دخلتها متعرفش ايتهوا حاجة.

تقول أخرى وسط ضحكات الجميع، ولف حجر الجوزة الصغيرة بينهن:

تلاصق منيرة حسنية في الجلوس، ويجلس سكسكه المخنث عن يمينها يلبي طلباتها، في حين كانت حسنية تتكلم عن زبائن منيرة وغناهم، وكثرة الطلب عليها، لتفتخر بها، وتشعل نار الغيرة في قلوب الأخريات.

-دي بتي وتربيتي امال ايه، دي اتولدت على ايدي واحنا في أسوان زمان يجي من عشرين سنه كده وأنا برعاها وأعلمها وأودكها، شوفو شوفو جمالها وحسنها بتفكريني بشبابي يا مضروبة، بس أنت أحلى امال ما أنت فيك عرق خواجه.

قالت حسنية ذلك ثم قطعت الحديث، لفتت الجملة الأخيرة نظر منيرة، فهي منذ مقتل فطومة لم تعد تسأل عن أبويها، ولم تعد تهتم، كما أن حسنية لم تجبها عن سؤالها حين سألتها عن أهلها قط، ولكن الآن تسمع بأذنيها إحدى المعلومات، بأن أحد أبويها لم يكن مصرياً (فيكي عرق خواجه)، لاحظت منيرة اضطراب حسنية وتغيير مجرى الكلام، حيث وجهت الحديث للفتيات لإكمال قصصهم الليلة ، ولم تشعرها منيرة بأنها قد اهتمت لهذه المعلومة.

ولكنها استأذنت لدخول إلى حجرتها، ورافقها سكسكه الذي كان ينام على باب الحجرة كل ليلة.

طوفان من المشاعر والأحاسيس المتضاربة يعتصرها، أسئلة كانت قد نسيتها أو حاولت أن تتناسها عادت لتفرض نفسها عليها عنوة، أحاديث فوزية عن الله والأنبياء، مريم البتول وعيسى ومحمد والأولياء، ما حدث يوم زارت مسجد السيدة زينب، وتلك المشاعر التي انتابتها وتلك اليد التي أمسكت يديها.

حاولت جاهدة أن تنام بعد أن شربت عدة كؤوس من خمر رديء، كان النهار قد انبلج نوره، ودخل الضوء إلى حجرتها فلم تستطع النوم، تذكرت فطومة وتمنت في تلك اللحظات أن تجاورها كما مضى، وتأخذها في حضنها تربت على شعرها حتى تخلد إلى نوم هادئ، تلك الأيام التي كانت مازالت فيها طفلة بريئة لم يلوثها الزمان بعد.

بين اليقظة والنوم وآثار الخمرة والحشيش التي مازالت عالقة بها، رأت نافذة حجرتها تفتح على مصراعيها، تطل منها، فترى حديقة خضراء كبيرة ودرجاً بسط لها، فنزلت عليه لترى من بعيد نهراً كبيراً أزرق اللون ، تتجه إليه محاطة برائحة عطر نفّاذ،

وطيور، وفراشات، وورود، وأشجار يافعة مزهرة كتلك التي رأتها من قبل.

تصل إلى حافة النهر وتنظر إلى موضع قدميها فتتحرك المياه محدثة صوت رقرقة خفيفة، وتدور فيه الدوائر قبل أن ترى صورتها منعكسة على سطح الماء ، فتمعن النظر في وجهها، فتجده أبيض كبياض الثلج، وتشع عيناها بشعاع فضي ينعكس على سطح النهر فتجعله يتلألأ ، وترى شعرها الأسود الطويل قد غطى نصف وجهها فترفعه بيديها للخلف، فتتفاجأ بقصره، وتمسك به تلك المشابك النحاسية ، تستغرب منيرة وتمعن النظر في الوجه الذي يظهر أمام عينيها مرة أخرى ، فتفاجأ بيد تمتد إليها لتخرجها منه، تمد يديها منيرة لتسحب تلك الفتاة التي خرجت لها من الماء ، شعرت بذات اللمسة التي شعرت بها في مسجد السيدة ، اقشعر جسدها كله وانتفضت كل خلجاتها ، تخرج الفتاة من النهر وتقف أمام منيرة ، وكأنها تقف أمام مرآه ، الطول نفسه ، البياض نفسه ، الملامح نفسها ، حتى الحسنة التي تزين أسفل شفتيها.

-أنت مين ؟

- أنا أنت

* * *

(١٥)

تستيقظ نور وقد داهمها الوقت ولم تنتبه إلى منبهها الذي كان يرن لمدة طويلة، تجلس باعتدال محاولة أن تتذكر حلمها الغريب، تشعر بمشاعر متضاربة ما بين الراحة والاستغراب، وتجزم أنها قد زارت هذا المكان من قبل، وتلك الرائحة التي مازالت عالقة بملابسها، وتلك الأصوات والورود والأشجار حتى العصافير والفراشات رأتهم جميعاً من قبل، ولكنها لا تذكر أين، ومن تلك التي تقول لها أنها هي، لقد ظنت أنها تشاهد انعكاس وجهها على سطح الماء لولا هذا الشعر القصير الذي يفرقها عمن كانت تراها.

ثلاث سنوات مرت على حادثة موت أخيها عبد الله وجارتها عبير، أياماً طويلة لم تعرف أثناءها النوم، مشهدهما وهما مقطعين حرفياً على طاولات المشرحة، والدماء المختلطة بالجلد المقطع، والعظم الخارج منها، كان كفيلاً بأن تصدم صدمة نفسية وتتأثر صحياً. لازمت سريرها لعدة أسابيع وانقطعت عن دراستها،

ولم تعد تسمع سوى القرآن في أرجاء المنزل، لم تشعر بثورة أبيها وغضبه وصراخه الدائم، ومعاتبته لأمها بأنها كانت السبب وراء ما حدث، وأنها قد تركت الولد على هواه ولم تحذره أو تخبره بما وصل إليه.

ولا بمحاولات أخيها عبد الرحمن في التودد إليها، وجعلها تقوم من مرقدها، أو تكمل طعامها الذي كانت تقتات منه القليل لصلب جسدها ليس إلا، ولا بكاء أمها على شباب ابنها الضائع الذي لم ينقطع طيلة هذه المدة، ولا على عدم الرد على هذا الزوج الذي يتهمها ونسي أنه قد تركهم منذ زمن متلذذاً بنزواته وزواجه المتعدد، واكتفى بإرسال الأموال إليهم فقط، كانه أب غاب للعمل في الخليج،

علمت بعد مدة أن أهل عبير قد انتقلوا إلى حي آخر بعيد، بعدما نالهم من الشيخ أكرم ما يسوئ به ذكرى وحيدتهم والنيل من سمعتها وشرفها، وأن هي من أغوت ولده وحثته على الفسق والفجور، وأرغمته على الذهاب معها في تلك الليلة المشؤمة،

لم تدافع عن أخيها وحبيبته، ولم تكذب أباها، بل على العكس صبت جام غضبها عليها أيضاً، ورددت ما كان يقول أمام الجميع، وكذبت عندما واجهتها أم الفتاة أنها كانت تعلم بعلاقتهما، وأنه كان ينوي الزواج منها.

-دي شيءطانة وأخذت جزاها وأخوي كان غلبان وهي ضحكت عليه.

-حرام عليكي يا شيخه قولي قولة حق، مش كنتي بتخرجي معاهم وعارفه كل حاجة وشفتيهم مع بعض وأخوكي بذات نفسه جه طلبها منا وقال بس لما يجي الشيخ أكرم من السفر يتمم الموضوع.

-محصلش... أجابت نور بكل ثقه وتكبر.

-نقاب ايه ودين ايه يا أختي إلى ح تتكوي بيه في نار جنهم وأنت بتكدبي ادام امك وستات العمارة كده حرام عليكي حرام دي كانت صحبتك وبتحبك وياما وقفت معاكي وسعدتك، والله إلى بقولهولكم دا هو الحقيقه بنتي أشرف من الشرف والله يرحمه كان

متكلم عليها واحنا وسطكم طول عمرنا شفتو علينا حاجة وحشه؟ يعني بنتي تموت دا قدر ربنا منقدروش نقولو حاجة ولا نعترضو، لكن كمان تسوا سمعتها دا حرام والله حرام.

تعض السيدات على شفاههن في صمت وتنظر سمية إلى الأرض باكية تتذكر ابنها ولا ترد.

-أنا معنديش صحاب بالمنظر ده وكفاية كده لو سمحتى كفاية إلى عملتوه فيّ أخوي الله ينتقم منكم الله ينتقم منك،

رددتها نور وهي تصرخ في وجه أم عبير وأمام جميع سيدات البناء، مما أضاف إلى حبكتها المزيد من الصدق وتكذيب أم الفاسقة التي جاءت تزيد الطين بلة ، ولم يشفع للسيدة عويلها وحرقة قلبها على من فقدت فقط، بل شوهت صورتها واتهمت زوراً وبهتاناً.

-حسبي الله ونعم الوكيل حسبي الله ونعم الوكيل، ليكم يوم يا ظلمة وربنا قادر على نصرة المظلوم وأنا

بنتي مظلومة والله يا ناس مظلومة.

وتخرج السيدة أم عبير باكية وهي مازالت تقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

لم يهتز لها جفن ولم تشعر بتأنيب الضمير بل على العكس شعرت براحة غريبة، حين أقنعت نفسها أن عبير هي السبب فيما حدث لأخيها، وأن نهايتها حتمية نتيجة لأفعالها الفاجرة والفاسقة.

مرت أسابيع قليلة بعد الحادثة، استيقظت نور ذات نهار -بعد أن أمضت ليلة جافى فيها النوم مقلتيها- تتذكر ما مرت به منذ عدة شهور، وكيف أنها كانت على حافة الهاوية، ربما كانت الحادثة منقذاً لها مما كانت ستؤول إليه، استيقظت بعد نوم قليل جداً تشتعل غضباً، فتذهب إلى جهاز الحاسوب الذي لم تقربه منذ الحادثة، وتأتي بمطرقة حديدية ضخمة وتهوي بها عليه حتى أصبح قطعاً صغيرة، تلقيه في سلة المهملات غير آسفة عليه، بل فرحة كأنها قد رجمت الشيطان بحجارة غليظة،

ارتدت نقابها كاملاً وخرجت تتجنب النظر إلى شقة عبير الخاوية الآن من قاطنيها، تزفر في غضب وتذهب إلى مدرستها بنية وعزم جديدين.

ثلاث سنوات أنهت نور أثناءها دراستها الثانوية، لم تكلم فيهم أحد بعد عدة محاولات منها لفرض آرائها عليهم، كما غضبت من منال التي ساعدتها في البداية ذات يوم عندما اعترضت على طريقتها الجديدة التي أغضبت كل الفتيات منها وأبعدتهم عنها.

-النار وبئس المصير مصيركم كلكم إن شاء الله، تتشوي في نار جهنم أنتم وإلى بتحبوهم المغنين والرقاصين والتليفون والتلفزيون إلى لحسو دماغكم، شايفاكم على الصراط شيلين ذنوب اد الجبال بتوقعكم في جنهم حدف، ملكمش منهم مفر وبكره تعضوا على أيديكم من الندم، ربنا خلقنا في الدنيا دي نعبده ونطيعه وبس، مقالش نقلع ونتعرى، نخرج ونتفسح ونغني ونرقص ونمشي على حل شعرنا.

-وأنت جاية ليه بقى المدرسة؟ ما تقعدي في البيت تعبدي ربنا في حالك وتسيبنا احنا في حالنا.....قالت إحداهن

-أنا بتعلم علشان أنشر ديني للجهلة الذين زيكم يمكن الحق حد قبل ما يبقى زيكم وبتعلم علشان أقدر أواجه مجتمع متخلف لازم يقبل النصيحة من شهادات فارغه للأسف، وبتعلم علشان لما أقف بين ادين ربنا أقوله أنا عملت بوصية رسولك الكريم واتعلمت والتعليم في بلدي اصعب من أني أسافر له الصين من كتر الأهوال التي الواحد بيشوفها في طريقه كل يوم، اهو جهاد لا يقل عن الجهاد في الحرب بالظبط.

ابتعدت عنها الفتيات بعد أن كانت تلاحقهن لترمي إليهن بحديث أو آية عذاب وبعد الرحمة عنهم لقبح أفعالهم، تحكي لهم عن عبير ومنظرها في المشرحة، وجسدها الغير مكتمل من صدمة القطار لها، وهو أقل عذاب في رأييها يناله عاص وبعيد عن أوامر الله، تجري وراءهم مذكرة إياهم أن فرصه التوبة قد فاتتهم وأن مصيرهم قد حدد ولا مفر.

تجنبها الجميع لثلاث سنوات ولكنها لم تبالِ، ركزت في دراستها واجتهدت فيها ورفضت محاولات أمها وأخيها عبد الرحمن في إحضار مدرسين لمساعدتها وقالت:

-المدرسين دول للعيال الفشلة، وإلى الدنيا شغالهم في مصايب كتير، عقلهم مركز فيها، لكن أنا مورياش غير مذكرتي وبس وأنا أعرف ازاي أنجح واتفوق عليهم كلهم وبمجهودي لوحدي.

ونجحت نور في الثانوية العامة دون دروس، وحصلت على مجموع جيد يؤهلها لدخول إحدى كليات القمة في القسم الأدبي.

-مبروك يا نور برافو عليكي ٩٥٪ دي تدخلك إعلام أو ألسن، وممكن كمان سياسة واقتصاد، قال عبد الرحمن مهنئاً.

-اعلام ايه والسن ايه يا شيخ اتقي الله دي كليات ملحدة، أنا ناويه على دراسات إسلامية وشريعة

نظر إليها نظرة إشفاق، ولكنه آثر عدم الحديث معها لما علمه من شدة طباعها وتزمتها في أعوامها الأخيرة بعد الحادثة، وأصبح يتجنب الحديث معها، لاسيما وأنه أصبح يعمل في شركة أبيه في فرع القاهرة فكان وجوده بالمنزل محدود.

وبدأ العام الدراسي الجديد فتوجب عليها تقديم أوراقها كمستجدة إلى الجامعات، وتحتم عليها إخبار أبيها بما تنوي، انتهزت فرصة وجوده الذي أصبح يعد على أصابع اليد الواحدة في السنة وانفردت به ذات مساء.

-أنا عوزه أدخل كلية شريعة بعد إذنك طبعاً لأكمل مسيرتك ومسيرة الشيخ مجدي، وربنا أمر بالجهاد والعلم نوع من أنواع الجهاد، نساء الرسول الكريم كانوا بيتعلموا العلم ويعلموه وصدقة العلم أفضل من صدقة المال وتعليم المرأه يبني مجتمعاً إسلامياً قوياً، قالت بسرعة كأنها تقرأ خطاباً.

كانت منذ صغرها ذكية ذكاء بالغاً، وتعرف كيف تقنع من أمامها بما تريد، وتتحايل على بعض الآيات والأحاديث لتأخذ منها ما تريد وتترك ما لا تريد.

-أنا شايف أن كفايه عليكي كده واديكي اتعلمتي وخدتي الثانوية، تتجوزي بقي وتربي عيالك تربية إسلامية مظبوطة وتنتبهي لهم متعمليش زي الخيبه أمك إلى رمت الواد لحد ما ضاع منها، أنا أملي فيكي كبير عوزك تخلفي نص دسته وتطلعيهم مسلمين على حق، يجاهدوا في سبيله وينشروا دينه زي جدهم.

-وليه يا أبوي تحصرني في نص دسته لما ممكن أعلم ميات وألوف كمان، دا أنا ممكن أبقى أكبر داعية اسلامية في العالم كله، وارفع اسمك واسم اللبان في كل حته، أرجوك متوقفش حلمي دا ربنا مافيش أكرم منه، وهو حط في الموهبة دي بس خلينا اتقلها بالعلم علشان محدش يقول واحدة جاهلة بتكلمنا.

أقنعته وأرسلت أوراقها إلى الكلية وكان مجموعها يتناسب مع الكلية.

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات التابعة لجامعة الأزهر، والتي تقع في المندرة قبلي القريبة من حي ميامي الذي تقطنه، وفي هذا الصيف وقبل دخول الجامعة تحديداً في ٧ يونيو من العام ٢٠١٠ استيقظت الإسكندرية على حادثة مقتل شاب يدعى

خالد سعيد.

* * *

(١٦)

استمرت المسيرة في التقدم حتى وصلت إلى الكورنيش، وسارت في إحدى طرفيه، تاركة الآخر للسيارات، وصلت المسيرة في النهاية إلى سيدي جابر، قاطعة نحو ٧ كيلو مرات، ولدى وصولهم، كانت السلطات قد قطعت الكهرباء عن المنطقة، وكان الأمن المركزي يطلق قنابل الغاز المسيل للدموع بكثافة.

بعد مقتل خالد سعيد وما تبعه من أحداث، وتفعيل شارة ترميز محدده (هاشتاج) باسم (#كلنا_خالد-سعيد) على مواقع التواصل الاجتماعي، ازدادت الأعداد على صفحته بشكل لم يسبق له مثيل، مما دعى بعض شباب المعارضة من حركة ٦ إبريل وحركة كفاية، وبعض شباب حزب الإخوان المسلمين، وشبكة رصد إلى توجيه هذا الحشد لتفعيل مظاهرة في يوم ٢٥ يناير من العام ٢٠١١ ،لأنه يوافق عيد الشرطة في رسالة واضحة إلى ظلم الشرطة وضربها للمواطنين من أمثال الشاب خالد سعيد.

والتي أدت إلى مقتله فكانت الفتيل الذي أشعل النار.

عندما خطت نور أولى درجات سلمها التعليمي في كلية الشريعة لم تكن تعلم أنها ستواجه مثل هذه التحديات في حياتها، فقد نفذت رغبتها في ارتياد الجامعة من أجل أن تحصل على شهادة تعلقها على جدار المنزل ليس إلا، ولم يكن في مخيلتها أن تجاهد في سبيل الله أو أن تكون داعية إسلامية كبيرة كما أقنعت والدها.

في حصتها الأولى والتي تصادف أن تكون في دراسة شعبة العقيدة والفلسفة والتي تدرس فيها الفلسفة والمنطق والتوحيد والملل والتيارات الفكرية المعاصرة، وبما أنها جامعة تابعة للأزهر فالكلية للبنات فقط، لم تكن نور تتخيل أن يطل عليهم في حصتهم الأولى شاب في آواخر العشرينات من عمره، أسمر سمار خمري، وعيون بندقية واسعة، فارع الطول ذو جسم رياضي، وشعر أسود، وذقن صغيرة تجعله يبدو أكبر من عمره، يرتدي بزة زرقاء، وقميصاً أبيض من

غير ربطة عنق، وكان القميص مفتوحاً ويظهر منه القليل من صدره، كان وسيماً جداً.

-ايه دا؟ أنا حبيت الكلية دي خالص

--كده من أول يوم، من الموز دا؟ ودا ح يديني طول السنه؟ الله أكبر

-دا اكيد جاي هنا غلط، حد يقوله إعلام ولا سياسية واقتصاد مش هنا

تحدثت بعض الفتيات وتدلت شفاه أخريات محدقة به.

شعرت نور أنها تعرفه من مكان ما، ووقع في قلبها شيء تجاه، وارتعشت فصائلها عندما راودتها تلك الأحاسيس التي وأدتها بعد الحادثة.

-السلام عليكم

أحب أعرفكم بنفسي أنا الدكتور إسماعيل الملاواني، خريج كلية دراسات إسلامية وعامل ٢ ماجستير واحدة في الفلسفة الإسلامية ومقارنتها بالفلسفة الوجودية، وماجستير تاني في علم الحديث، ودكتوراه بتوفيق من ربنا في التيارات الإسلامية المعاصرة ومقارنتها بالتيارات فيما بعد رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، ما تصلوا عليه.

تمتمت الفتيات بحماس كاد يصل إلى التصفيق والصفير من البعض بعد أن قالوا:

-عليه الصلاة والسلام وكأنهم في مدرسة ابتدائية.

لم تنتبه نور إلى شيء في المحاضرة، ولا إلى غزل الفتيات للمدرس، ولكنها تاهت في عينيه.

-أستغفر الله العظيم يا رب، أعمل أنا ايه دلوقت أحول من الكلية ولا أعتذر عن مادته ولا ايه؟ طيب وأعتذر ازاي وأقول لأبوي ايه طيب؟

حدثت نور نفسها في طريق عودتها وهي تركب إحدى المشاريع (المشروع يطلق على ميكروباص صغير يعمل في خدمة النقل ما بين مناطق الإسكندرية) من منطقه المنتزه إلى منطقه سكنها ميامي.

أغلقت نور باب حجرتها عليها وواصلت التفكير في عيون هذا الشاب، وكذبت نفسها عندما لمحته ينظر إليها عدة مرات وليست مرة واحدة كصدفة.

-يعني ح بيص على ليه وأنا لبسه نقابي ومش باين مني غير عيني، دي تهيؤات طبعاً، أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم

بكره ح اروح اطلب نقل لشعبه تانية واهو الباب الذي يجيلك منه الشيطان اقفله بالضبة والمفتاح وارمي المفتاح في البحر .

في صباح اليوم الثاني ذهبت نور إلى إدارة شؤون الطلبة تحاول أن تنقل إلى شعبه أخرى، فقد كانت الكلية تضمُّ ثلاث شعب هم: قسم التشريعية

الإسلامية، وقسم أصول الدين، وقسم العقيدة والفلسفة، ولما كانت نور قد درست أصول الدين والشريعة من قبل في معهدها الأزهري اختارت شعبة العقيدة والفلسفة، حيث إنها لم تدرس الفلسفة من قبل.

-مينفعش يا بنتي خلاص ميعاد التحويل خلص من يومين ... قال موظف شؤون الطلبة.

- ليه حضرتك دي الكلية بدأت من يومين بس؟

-مهو التحويل كان لازم قبل ما الدراسة تبدأ.

- طب ايه العمل دلوقت؟

-العمل عمل ربنا، اكتبي طلب وقدميه للأستاذة عميدة الكلية وعليه أسباب مقنعه، لو اقتنعت ح تحولك على لجنة لفحص طلبك، بعد الفحص ح يراسلوا شعبه أصول الدين إلى أنت عوزه تحويلي لها، لو وجدو لك مكان ح يردو على لجنه الفحص إلى بدورها ح ترد على الست العميدة إلى بدورها ح تبعت لنا هنا موافقه

وأنت لما تمري علينا تسألي مرة كل شهرين تلاته كده نقولك آخر الأخبار.

-يااااه هو الموضوع ياخد وقت اد ايه؟

-بتاع سته سبع تمن تسع شهور كده، بس اطمني كله بأمر الله متيئسيش.

-طب مافيش أي حل تاني نعجل بالوقت شويه؟

-في، تتكلمي مع الدكتور إسماعيل اهو واقف وراكي وتقولي له ليه أنت عوزه تنقلي من القسم إلى هو بيدريس فيه،

قال الموظف وهو يبتسم ويوجه نظره إلى الدكتور إسماعيل، الذي من الواضح أنه كان يستمع للحوار منذ بدايته،

تسمرت نور وتاهت قليلاً، وهي تفكر أن بمجرد التفاتها سوف تكون وجهاً لوجه مع إسماعيل الذي لم تنم ليلتها بسببه، وأنها تنوي النقل درءً للشبهات، ومن أجل

ألا تلتقي به مرة أخرى، وها هو القدر يسوقه إليها ويجعله في مواجهتها مباشرة.

-السلام عليكم

-وعليكم السلام، قالت نور وهي تلتفت للخلف وتنظر إلى موقع قدميها.

-خير امريني عم صابر بيقولك اسألى الدكتور إسماعيل ، اتفضلي تحت أمرك بس تعالي بره المكتب خلي الراجل يشوف شغله وفي طلبة تاني وراكي.

-خرج إسماعيل ولم يعطِ الفرصة لنور بالرفض أو الإيجاب، ومشت وراءه وهي مازالت تنظر إلى قدميها، حتى أنها كادت أن تصطدم بطالبة بقوة.

-خلى بالك يا أختي، قالت الطالبة وهي تحاول تفاديها، وتنبيهها إلى رفع عينيها قليلاً، وما إن رفعت رأسها حتى وجدته ينتظرها أول الممر الفاصل بين حجرات الدكاترة وحجرات موظفي شؤون الطلبة.

مشى إسماعيل حتى وصل إلى حجرة، ففتح بابها وقف عنده، ثم مدّ يده إلى الداخل قائلاً:

-اتفضلي

ثم دخل وجلس على إحدى الكراسي في غرفة كبيرة يظهر أنها غرفة اجتماعات خاصة بدكاترة الكلية.

وقفت نور تلتقط أنفاسها وتحاول أن تسيطر على مشاعرها المكبوتة،

-خير؟ اتفضلي اقعدي واقفة ليه؟

كان إسماعيل حريص على ترك الباب مفتوحاً.

تحشرج صوت نور، وكحت بصوت منخفض، وتجنبت النظر إلى عينيه.

-لا حضرتك مافيش حاجة، أنا بس كنت عوزه أنقل شعبه أصول دين.

-ليه؟

-أنا دارسة لحد إعدادي في معهد أزهري وكنت محتاجة أثقل معلوماتي، اكتشفت أن علم الفلسفة بعيد عن اتجاهاتي.

-علم الفلسفة الإسلامية من أمتع العلوم التي ممكن تعرفيها في حياتك، وطالما أنت بتقولي دارسه فقه وشريعة يبقى فاضل لك تدرسي الدين من منظور مختلف وجديد، صدقيني مش علشان أنا الذي بدرسه بس علشان أنا العلم دا أثر فيّ نفسياً، ودعيت ربنا أنه يجعلني سبب وأقدر أوصله لكل الناس والحمد لله وبتوفيقه قدرت أعمل ٢ ماجستير ودكتوراه وتقديري العالي هو الذي خلى الجامعة هنا تطلب تعيني مع أنه صعب تعين دكتور صغير في السن في كلية إسلامية للبنات ، لكن العلم يعلم من أي شخص لأي شخص مهما كان سنه أو جنسه أو حتى ديانته، احنا بس الذين محتاجين نغير كتير من مفاهيم ومعتقدات أغلبها صبت في رؤوسنا صب ولم نتعلم الاعتراض أو التفكير في مدى صحتها مع أن القرآن الكريم فيها

كتير آيات تحث على التفكير والفهم وعدم النقل دون وعي.

ألا تتفكرون، ألا تعلمون، ألا تتدبرون.....إلى آخره.

سمعت نور أغلب الكلام، ولكن جزءاً منها كان يطير في السماء، خارج أسوار الجامعة، ممسكة بيده ويمرحان سوياً في سماء صافية تحملهما سحابة بيضاء.

-معاي؟ سألها إسماعيل عندما شعر أنها غير موجودة كلياً.

-اه مع حضرتك بس...

قاطعها قبل أن يسترد القول:

-وبعدين بنت الشيخ أكرم اللبان لازم تكون على علم ودراية بكل الشعب والعلوم، مش كده ولا ايه؟

شهقت نور شهقة حاولت ألا يسمعها إسماعيل، وأصبحت كلها آذان صاغية، هل ما قاله حقيقي؟ أما

سمعته هو الصواب؟ هل قال بنت الشيخ أكرم اللبان؟

-هو حضرتك تعرفني؟

-طبعاً.

-حضرتك تعرفني منين وازاي وأنا.....

-قصدك بنقاب؟

وقبل أن يجيبها دخل عدة دكاترة الغرفة، فبلعت نور ريقها، ووقف الدكتور إسماعيل وهو يقول:

يالله يا نور روحي على محاضراتك وانسي موضوع النقل دا نهائي، النقاش فيه مغلق.

قالت وهي تنسحب من الغرفة، وتمسك بطرف عباءتها وتنظر إلى الأرض:

-السلام عليكم

هل قال نور؟ قال نور؟ نعم قال يالله يا نور؟ يعني هو يعرفني، ونظراته لي في المحاضرة الأولى صحيحة مكنتش بتخيل أو متهيئ لي.

كاد قلبها يفارق ضلوعها لشدة ضرباته.

-بابا، حضرتك تعرف واحد اسمه الدكتور إسماعيل الملواني؟

-ايوه طبعاً، دا من شباب الجماعة ومعانا من مدة طويلة

* * *

(١٧)

حالة من الملل تتخللها، وهي تصارع أحاسيسها المكبوتة، وتلك الأحلام التي تراودها، المكان نفسه والأشخاص أنفسهم، تراهم كل ليلة وتجلس معهم تتسامر وتضحك، وتطير قليلاً في سماء مفتوحة، وترى تلك الفتاة التي قالت لها إنها هي، ولم تختلف عنها في شيء سوى طول شعرها.

-ثورة؟ ثورة على مين يا بنات؟ سألت حسنية وهي ترى تجمع الفتيات عند باب الدار ذات يوم.

-على الإنجليز إلى وكلين أرضنا ومموتين شبابنا يا أبلتي...أجابت إحداهن.

-احنا مش أقل وطنية من إلى بره دول، ولازم يكون لنا تصرف.

-ايه الحكايه يا بت انطقي؟ قالت حسنية وهي تسحب الكرسي وتجلس ليحضر لها إحدى الصبية نرجيلتها.

الحكاية أن في شاب مصري كان ماشي بليل متأخر ناحية عماد الدين وكان في اتنين عساكر إنجليز شكلهم كان سكران ولا محششيءشن ولا حاجة، خبطوا في الولد وبدل ما يعتذروا له عملوا عليه رجاله شتمهم ضربوه بغشومية ومسبهوش الا جثه يا حبه عين أمه مرمية في الشارع.

-يقطعهم البعدا الهي وأنت جاهي يحرقهم بجاز وسخ ولاد الكلب دول، ها وبعدين كملي يا بت .قالت حسنية وهي تشد من حجر نرجيلتها الساخنة:

-أوم ايه، جت أم الواد وعملت مناحه ولمت عيلتها وشباب أصحابه وراحو الكراكون يشتكو قبل ما يستلمو جثته

-ها ؟

-أوم ايه، طلعوا عليهم العسكر خبط وتكسير لا وكمان لموا العيال إلى كانوا معاها وحبسوهم بعد ما دغدغوهم

-ها؟ كملي يا بت مالك مسهوكه كده،...في شغف وترقب تتابع حسنية.

-أوم يا أبلتي تروح الست أم الواد القتيل تأجر مناديه على عربيات كارو على كام حمار بتباعه، يمشو في البلد ويحكو الحكاية، كل شارع يدخلوه يطلعو رجالته وراهم لحد ما الشوارع كلها اتملت وبيقولو ثورة ثورة لازم الإنجليز ترحل.

-طب ح نعمل ايه يا أبلتي؟ نطلع نمشي معاهم ولا نطلع نعمل لهم خناقه نسوان ونشرشحهم ونقلع لهم المليات ملط ؟

-لا يا بت احنا مصريين وبنحب بلدنا صحيح ومنسبوش حقنا عند ولاد ال..... دول ، بس نعمل ايه يا حسنية نعمل ايه يا حسنية ؟ سبوني أفكر يا بنات، احنا لازم نعمل عمل وطني يتكتب في التاريخ، ونتصرف تصرف يليق بينا، قالت جملتها الأخيرة وهي متقمصة دور ناظر عزبة، أوعين من أعيان البلد.

وفي مساء هذا اليوم اجتمعت حسنية بكل العوايق في شارع كلوت بيك واتخذت عدة قرارات،

منعت حسنية الماظية دخول أي عسكري إنجليزي من دخول البيت مهما كانت رتبته ، أو أي بيت للغواني في المنطقة وبعض المناطق الأخرى.

-ازاي كده يعني يا وليه أنت، هو بمزاجك؟ قال إبراهيم الغربي غاضباً.

-وليه لما تولل عليك يا بعيد، أنت يا واد نسيت نفسك ولا ايه قال وليه قال، لا فوق كده من هباب البرك إلى بتطفحه وشوف بتكلم مين، منصبك وكبرك دا بره البيت دا، أنا إلى عارفه اصلك وفصلك وأنا إلى عملتك، اه أنا حرة ودا بيتي بفلوسي وعرق جبيني، وأنا إلى أقول مين إلى يدخل ومين اقطع رجله قبل ما يدخل، .....قالت الجملة الأخيرة في تحدٍ واضح.

-مش الفكرة يا معلمة، أجاب إبراهيم بشيء من الخوف: دي حادثه زي أي حادثه بتحصل عادي في

الشارع وبتروح لحال سبيلها وبكره تتنسى، لكن احنا نوقف أكل عيشنا بايدنا ونمنع رزق ربونا لينا ، لا دا حرام وميرضيش حد.

-خلاص يا واد أنا قلت كلمة ومش ح تنيها، مافيش كلب إنجليزي يدخل بيت حسنية الماظيه من هنا ورايح، وإلى بيديني حاجة يبقي يمنعها يا روح أمك، وفز قوم بقي مش عوزه كتر كلام.

غضب إبراهيم كما غضب أغلب الفتوات لقلة الزبائن، وقد كان اعتمادهم الأكبر على الإنجليز لسخائهم ودفعهم مبالغ كبيرة؛ ليس فقط للفتيات ولكن للحشيش والخمر، والذي كان مصدر رزق لكثير من البرمجية والفتوات. لكن حسنية لم تتراجع عما فعلت.

-معلش نستحمل شويه احنا مش أقل وطنية من إلى بيحصل حوالىنا، واهم روأخرىن لقو مزاجهم بعيد عنا وبدؤوا يروحوا على عوامات الزمالك ويلاقوا هناك مطلبهم.

-وهما إلى في الزمالك دول يا أبلتي مش اغلبهم خواجات، يعني مش غواني شاطرين زينا.

-ما يولعوا يا بت دول على دول احنا مالنا، ... قالت المعلمة غاضبةً.

-و إلى قلت دي يا أبلتي؟

-معلش نفتحها بقي شوية للطلبة والغلابة دول برضه أهلنا ومن دمنا ننزل شويه بالمعلوم ميحصلش ايتوها حاجة.

مرت عدة أيام قبل أن يأتي محروس بالبشارة.

-معلمة يا معلمة، وقعت لك شوية طلبة شكلهم لسه جاين من الأرياف من أم اسمه ايه دهو إلى بيلبسوه بتوع المشايخ

-قصدك ايه يا واد، قفطان؟

-ايوه هو دا يا معلمة.

-ودول معاهم فلوس يا واد؟

-شكلهم كده على اد حالهم بس معاهم اهو أي رزق والسلام.

انتفضت حسنية وقامت تجمع الفتيات.

-بقولكم ايه، جيلنا الليلة دي شويه قفاطين كده جواها شويه شباب اهو اي حاجة تمشينا ، وضحكت ضحكة خليعة قبل أن تقول:

مش ح أوصيكم بقي تجيبولي آخر نكلة في جبهم والاهم أنهم يبقوا زباين دايمين مش زيارة خطافي والسلام، فاهمين يا بت منك ليها؟

استلقت بجسدها الأبيض الناصع على سريرها، ترتدي ثوب نوم حريري فاخراً قصيراً ضيقاً، أصفر فاقع اللون، تظهر كتفيها منه، وترتدي عقداً ذهبياً كبيراً، وخلخالين نحاسيين في أرجلها، وأساور عدة في معصميها، تضع أحمر شفاه من دم غزال، اشترته من عطار المنطقة، كما اشترت مكحلة ذات يوم من سوق

خان الخليلي لتحتكل بها، وتجعل عينيها أكثر اتساعاً، وتضع حنة سوداء على أظافرها، وتمسك سيجارتها بيد ويديها الأخرى تسندها على فخذها وتحسس عليه وهي تهز الرجل الأخرى في غضب كبير.

يطرق الباب ثلاث مرات من قبل المخنث سكسكه؛ وهو يتشدق بعلكته ويمسك طرف جلبابه المزركش بألوان الطيف قائلاً:

-الزبون يا أبلتي، اتفضل يا سي الأستاذ. ثم ضحك ضحكة خليعة وهو يقذفه إلى داخل الغرفة قذفاً ويغلق الباب عليه سريعاً.

لم تتحرك منيرة ولم تنظر إليه، ومازالت تأخذ أنفاساً من سيجارتها وتحرك يديها ببطء على فخذها تارة، وتضعها على شعرها تارة أخرى، لتتأكد من أن القصة على جبينها معتدلة ومشابكها النحاسية الصغيرة راقدة في مكانها.

لم يتفوه بكلمة، لقد تسمر في مكانه في منتصف الحجرة يمعن النظر في فخذيها وبياضهما،

-ايه يا أخوي المتسمر دا؟ متيجي يا أخوي، تعال، تعال هنا في ريحي وفك نفسك كده من التقفيلة إلى أنت لابسها دي.

اقترب الشاب قليلاً وهو يخلع عمته الأزهرية، ويضعها على كرسي مقابل السرير النحاسي الأصفر، ذي الستارة البيضاء المصنوعة من قماش الشاش الرديء.

اقترب عند حافه السرير، وأخذ ينظر إليها والعرق يتصبب من جبينه، وتحمر وجنتاه، ويتمتم بكلمات غير مفهومة،

أطفأت منيرة سيجارتها وهي تعتدل من مرقدها، ترفع القميص الأصفر الحريري ليصل إلى آخر جزء في فخذيها، فتلاحظ اضطرابه وعرقه فتضحك مقهقهة وهي تقول:

-أول مرة ولا ايه؟ طب تعال متخفش أنت اسمك ايه؟

-إسماعيل

-عاشت الأسامي يا سمعه، وبتدريس يا اخوي ولا مستوظف؟ قالت وهي تقترب منه وتضع يديها على كتفه.

يتراجع قليلاً إلى الخلف ليبعد يديها عن كتفه، وتحشرج صوته، ويخرج منديل قماش رمادي يجفف به عرقه ثم يقول:

-لا لسه تلميذ.

تضحك مرة أخرى، وتقترب منه لتضع يديها الاثنتين على فخذيه كأنها تقول له لا مفر.

-والله وح تبقي أنت كمان صديقة الطلبة يا منيرة، ضحكت عدة ضحكات، واقتربت منه أكثر ليصبح وجهها ملاصقاً لوجهه، وأغمضت عينيها، وفتحت شفتيها قليلاً،

انتفض إسماعيل وقف يتمتم:

-أستغفر الله أستغفر الله

فتحت منيرة عينيها، وقد كان اسم الله لم يتردد أمامها منذ وقت طويل، عدلت ملابسها، وشدت قميصها إلى أقصى درجة ممكنة، وحاولت تغطية كتفيها قليلاً، ثم نظرت إليه فرأت شاباً في أوائل العشرينات، أسمر سماراً خمرياً، ذا عيون بندقية، وشعر أسود كثيف. يرتدي زياً أزهرياً ويتصبب عرقاً.

-طب اقعد يا أخوي، مش لازم تعمل حاجة لو مش عوز، أنت أصحابك جبوك غصب ولا جاي بمزاجك؟

لم يجب، وبقي واقفاً يمعن النظر بها تارة، وينظر إلى الأرض مغمضاً عينيه بشدة يستغفر الله تارة أخرى.

-هو أنت شايف عفريت قصادك ؟

-طب ممكن طيب تتحشمي بأي حاجة؟

-اتحشم ازاي يعني؟

-تستري جسمك بس باي ملايه ولا حاجة؟ يسألها إسماعيل في تذلل واضح ثم يردف قائلاً: مش عارف أبصلك ولا أمنع عيني عنك والنظرة الأولى كده بقيت مية، الله يسترك استري نفسك بس لو أمكن؟

شدّت منيرة شالها الأسود الكبير، ولفته حول جسدها العاري، ولبسته كملاءتها اللف، إلا أنه أقصر منها، ينظر إسماعيل إليها ويستغفر كثيراً وهو يغمض عينيه.

-ايه تاني ؟ما أنا اتسترت اهو

-اتسترتي؟ دا الشال زاد جمالك أضعاف

استوقفتها الجملة فلم يقل لها أحد من الرجال هذه الكلمة من قبل، إلا بعض الكلام الذي يتمّ به العمل ليس إلا،

ولكن صدق إسماعيل وصل إلى قلبها، نظرت إليه بتمعن فخيل إليها أنها قد رأته من قبل، ولكنها لم تعلم أين، فآثرت ألا تتذكر الأماكن أو من تشاهدهم في

الواقع وفي أحلامها المستمرة، إلى فقدت التركيز والتفريق بين الواقع والحلم.

-هو احنا اتقابلنا قبل كده يا سي الأستاذ؟

-لا والله محصليش الشرف

-متأكد؟ تسأله منيرة في حنان حقيقي وهي تحدق في عينيه.

-طبعاً متأكد هو إللى يشوفك مرة يسلاكي؟

أغمضت منيرة عينيها قليلاً تحاول أن تتذكر ما رأت إلا تلك الفتاة شبيهتها وتلك الغابة الخضراء، وأفاقت على حشرجة صوت إسماعيل قائلاً:

-أنا عوز بعد إذنك امشي؟

-تمشي ازاي يا اخوي هو دخول الحمام زي خروجه، أنت مش دافع المعلوم تحت للمعلمة؟ عوز تنزل أدام

الرجالة إلى تحت وأصحابك تقولهم أنا طلعت عيل خيخه، ورجعت في كلامي؟ وتضحك الضحكة ذاتها.

-لا يا ست أنا مش عيل ورجال وسيد الرجال كمان، أنا الفكرة بس أني جيت هنا مكروه، زي ما قلتي أصحاب سو الله يلعنهم غصبو على ولو كنت رفضت كنت اتعيرت بيها طول عمري وأنا صعيدي محدش يقدر يعايرنا.

-من فين من الصعيد يا أخوي؟

-من أسوان أجمل بلاد الكون ، .. قال ذلك وكانه تذكر فجأه شيئاً جميلاً رطباً على قلبه في هذا الموقف الساخن.

أسوان..... تذكرت (دي اتولدت على ايدي واحنا في أسوان) قالت حسنية ذات مساء: (من ساعه ما جينا من أسوان وأنت مفرقتيش حضني يا حبة عيني) عندما قالت لها ذات مرة فطومة،.... أفاقت من غفلتها ونظرت إليه كانها تبحث عن نفسها في داخل أسوان.

-طب اسمع، ح اعمل معاك اتفاق ،... أنت تقعد تاخد وقتك وكده كده أنت دافع ومش ح يرجعولك الملمين حتى لو عملت لهم فيها قرد بصديري، إلى بيدخل صدر أبلتي بيدفن جواه لا ممكن يطلع ابداً، هههههههههه

فتقعد بكرمتك نتكلم حبة وتخرج بعد الساعة تظبط عمتك وتنفخ صدرك وتظبط شنبك وتكح بصوت عالي قبل ما تصقف بايدك وتقول يا سااااتر وتنزل سبع البرمه يوم دخلته ،هههههههههههههع

، ها ايه رأيك؟

-وح نتكلم في ايه؟

-ح نتكلم في كل حاجة

-بس على شرط

-أمر يا سيدي

-تقعدي بعيد وتستري جسمك كله،.... أنا مش عارف أتلم على مفاصلي الله يخليكي

-حاضر ح الف الملايه كلها على وراح اقعد في آخر السرير وأنت اقعد في أوله، ها اتفقنا؟

-اتفقنا.

***

(١٨)

في يناير من العام ٢٠١١ كان إسماعيل الملاوني يتوسط مجموعه من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين في منطقه سيدي جابر في الإسكندرية في اجتماع مغلق، كان معه الشيخ أكرم اللبان وعديله الشيخ حسن الحداد والشيخ مجدي غانم وبعض من قيادات الجماعة.

-يعني ايه نستنى لما نشوف الموجة رايحة لفين؟ قال إسماعيل غاضباً.

-يعني نستني يا سي إسماعيل ، بلاش فورة الشباب دي إلى بتودي في داهية ، احنا مش ح نمشيء ورا شويه عيال منفعلين بحماسهم ومش عارفين الكلام على الأرض بيكون ازاي ، أجابه الشيخ مجدي.

-بص حضرتك في الأوراق دي بعد إذنك وبعدين قرر، دي آخر أحداثيات مبعوته لنا من شبكة رصد، الأعداد في تزايد ووصلت لألوف والهاشتاج بتاع خالد سعيد

بقي ترند في السوشيال مديا كلها، والحركة بتزيد وفاضل يومين على ٢٥ يناير ، لازم يبقي عندنا خطة موضوعة ، أنا لازم أرد على الشباب إلي واقف بره دا ، لازم أعرض لهم خطه ، الإسكندرية ممكن تكون هي مفتاح نجاح الثورة ، ومتنساش أن الحكاية ابتدأت بحادثه خالد ، يعني من عندنا .... قال إسماعيل وهو يمد يده بالأوراق ليطلع عليها الشيخ مجدي ولكن الأخير رفض أخذها معقباً:

-بص يا ابني . صلي على إلى ح يشفعك فيك ، احنا كحركة إسلامية علينا العين وفي أحاديث منشورة لشيوخنا الأجلاء عن عدم الخروج على الحاكم مهما اشتد ظلمه، لازم نهدى ونلعب صح ، ونشوف الكورة ح تكون في ملعب مين ، احنا ممكن نتحبس كلنا واديك شايف إلى جوه بقوا اكتر من إلى بره ، نروح بقى نقعد معاهم ونسيب مكانا فاضي علشان حركة ٦ إبريل الملحدين ولا العيال بتوع كفاية إلي مسقطين بنطلوناتهم وشويه الحماس الفارغ دا . استهدي بالله كده واهدى.

خرج إسماعيل وهو يزفر قبل نهاية الاجتماع، وذهب إلى مجموعة من الشباب الذين يمثلون مختلف التيارات، كانت تنتظره عند مسجد القائد إبراهيم القري من مقر الجماعة.

-أنا اسف يا دكتور إسماعيل ، لو حضرتك أخدت الأوامر من الكبار أننا ننتظر احنا مش ح ننتظر وحضرتك ليك مطلق الحرية في قرارك ، ولكن اعذرنا احنا مش مطالبين أننا ننفذ أوامر الكبار ونقعد على جنب نتفرج.

قال أحمد أحد الشباب القائم على نشاط حركة رصد.

-أنا معاكم يا أحمد وبحكي لكم إلي حصل في الاجتماع، لكن أنا مش موافق طبعاً وسبت الاجتماع وطلعت وجيت لكم، طبعاً لازم نتواجد ولازم يكون لينا دورنا إلي مش ح يقل عن أي شاب فيكي يا مصر.

في صباح الثلاثاء ٢٥ يناير وقف أحمد في إحدى الشوارع الجانبية في منطقه العصافرة، يتلفت حوله

بحثاً عن علامة تدل على تواجد الشرطة، وعندما اطمأن أنه لا يوجد أحد سواه بدأ الاتصال بالأرقام العشر التي أعطاه إياها الدكتور إسماعيل،

وعندما بدأت المجموعة تكتمل لم يكن هناك أحد غيرهم إلى أن دقت الساعة الثانية عشرة ظهراً.

قاد أحمد المجموعة إلى نقطه التقاء عرفها من الدكتور إسماعيل قبل دقائق قليلة، وبدأت المظاهرة متضمنة أقل من خمسة عشر شخصاً ، وسرعان ما بدأ تهافت الناس حولهم يصرخون.

-أنتم شفتوا اللحمة بكم ؟ العيش عامل ازاي؟ مستشفيات زفت وشوارع طفحة فيها المجاري ، كلهم نصابين وحرامية وكلنها ولعه واحنا الغلابة دايسن علينا بالجزم ، مافيش سكوت بعد اليوم.

عيش حرية عدالة اجتماعية.

وقبل حلول مغرب ذلك اليوم كانت المسيرات بالألاف في كل شارع في مصر كلها وليست الإسكندرية

وحدها.

في المساء وداخل مقر الجماعة وصل إسماعيل مسرعاً بعد اتصال من الشيخ الحريتي شخصياً واحد من كبار القيادات، وصل متأخراً بسبب الزحام الهائل في الشوارع، ووجد الجميع في حالة تأهّب قوي كأنها الحرب.

-الوضع مكنش متوقع نهائي، ولا الأعداد ولا غشواه الشرطة والضرب إلي بتعمله بره دا.قال الشيخ الحريتي

-أنا .... وهمّ إسماعيل أن يتكلم فأشار له الشيخ الكبير أن يصمت، ثم عقب:

-احنا نزل من عندنا شباب أنا عارف وخالفوا الأوامر الصريحة من الشيخ مجدي بالانتظار، لكن احنا ح نعذرهم ويمكن المولى عزّ وجل أراد أننا نتواجد على يد الولاد دول ويكونوا هما الإشارة إلي فتحت لنا الطريق، على بركة الله ، احنا ح نحط خطة دلوقت

فيها كل الاحتمالات ، الأموال موجوده وبكثره ، الدكتور إسماعيل هو حلقه الوصل بين الكبار هنا بداخل المقر والشباب تحت بالميادين ، ح يكون معاكم من بكره هواتف محمولة على نظام الثريا ، طبعاً احنا حاطين سناريوهات كتير لكن السيناريو إلي ح يكمل الله وحده أعلم به ، لكن عوزكم تطمنوا احنا متابعين ومش احنا لوحدنا التنظيم العالمي كله متابع ومعانا خطوة بخطوة ،

بتوفيق الله وبركة رسوله.

-وقبل أن ينفض الاجتماع تمايل أحد الحضور على الشيخ أكرم يسأله:

-هو مش إسماعيل دا ابن الشيخ مصطفى الملاوني

-ايوه ليه ؟

-وجده الشيخ الملاوني الكبير، إلى عنده مقام بعد بحري كده لجوه؟

-لا معرفش، مقام ايه؟ سأله الشيخ أكرم في امتعاض.

-يا شيخنا دول رؤوس الصوفين في الإسكندرية من زمن ، وابوه وعلته كلها صوفين كفرة ، ايه إلي دخله ما بنا دا ؟

-معرفش والله بس أول مرة أسمع الموضوع دا وح أبلغ الشيخ مجدي أكيد هو إلي يعرف

١٨ يوم في الميدان تعمل نور كالنحلة تهتف وتعالج المرضى وتساعدهم وتطعمهم مرتدية نقابها، وكانت في الخيام الخاصة بفتيات وسيدات الجماعة، وفي الخيام المأجورة يقود إسماعيل مجموعه الشباب ويعملون كتفاً بكتف.

كانوا يسهرون كل يوم ليلاً مع الجموع عندما يهدأ الوضع قليلاً، يلتقطون أنفاسهم بعد معركة حامية، يختلط نهارهم بدخان القنابل، وأصوات عربات الإسعاف، والهتافات المدوية، وليلهم برائحة الدماء والروايات عن الشهداء.

-في أخبار عن الشيخ أكرم يا نور ؟

-لا من ساعه مسافر فجر يوم ٢٩ قبل ما يطبقوا الحظر بساعات هو والشيخ مجدي لأمريكا واحنا مافيش أي وسيله اتصال بيهم، وأنت معرفتش عنهم حاجة من المقر ولا القيادات؟

-لا محدش بيقولي حاجة وحاسس بشيء مش مطمني

-زي ايه؟

-لا مش عارف بس الوضع مريب، وفي تحركات غريبة وتخبية حاجات مش بتتقال بوضوح، معرفش أنا مش مطمن ومش مبسوط.

-استعذ بالله من الشيطان الرجيم بس وكله بأمرك، ليس لنا من أمرنا شيء، تحدثت نور بالفصحى كما كانت معتادة عندما كانت تتكلم عن الله وأحكامه.

لم يبوحا لبعضهما البعض بما يخالجهما من مشاعر، كانت ترافقه بعينيها أينما ذهب ، ترتعد فصائلها عندما

يقود مظاهرة، وتدعو الأدعية كلها التي كتبت في كتاب الله أن يرده الله سالماً معافىً، وتشعر بقدومه عندما يأتي من بعيد قبل أن تراه، كانت تحبه حباً لم يسبق لقلبها أن شعر بها طيلة عشرين سنة منصرمة من حياتها ، ترتعش يدها عندما تلامس يده في الزحام عند نقل مصاب، أو عندما يحميها وسط الجموع، ويشد ملابسها لتبقى أمامه حتى لا يتحرش بها أحد ، ويرتجف قلبها عندما يناديها باسمها من أول الخيمة لمساعدته في أمر ما ، في الساعات القليلة التي كانت تنامها بالتناوب مع الفتيات ، كانت قبل أن تغمض عينيها تراه وتسرح في ملكوت بعيد عن الميدان والخيام والحرب الدائرة في الخارج ، كانت تراه في هذا المعراج الأخضر العالي، يقف عليه بملابس بيضاء، ينظر إلى النجوم ويسبح بسبحة خشبيه طويلة ، وتحاول الصعود إليه في همة وتحدٍ، مبتسمة، كلها أمل في الوصول، ولكن هناك شيئاً يصدها، فتنزلق مرة أخرى للأسفل، فتحاول مرة أخرى وتفشل وتحاول ، ثم تستيقظ على صوت صراخ وعويل لموت أحد أو سيارة إسعاف تمر جانب الخيمة.

مشاعرمرهفة في وقت غريب وأحاسيس متضاربة، تهتف في النهار وتدعو الله أن ينصر الثوار، وأن تنجح الثورة، وتصرخ وتنفعل عند كل حدث وموقف من الحكومة والإعلامين، وتهرب في المساء إلى مخدعها حتى تراه عن قرب وترتمي بين أحضانه ، كانت تحبه ولكن لم تبح أو تشير إشارة واحدة إلى ذلك، ولم تكن تعلم ما مصير هذا الحب بعد.

وفي ليلة الحادي عشر من فبراير، اجتمع من كان في الميدان أمام شاشة عملاقة ليرى الأخبار، واستمعوا إلى كلمة السيد نائب رئيس الجمهورية في هذا الوقت اللواء عمر سليمان معلناً تنحي الرئيس حسني مبارك عن الحكم، في هذه اللحظة التي نام من أجلها الملايين في الشوارع والميادين، انتفض الجميع صارخاً مهللاً فرحاً راقصاً يحضن كل من كان جانبه من شدة الفرحة، تصادف أنهما كانا متلاصقين.

وعندما أمسكها من كتفيها يقفزان سوياً إلى أعلى ويصرخان الله أكبر الله أكبر ، سكن الكون فجأة واختفت الشاشة العملاقة، وتحول الميدان إلى شاطئ

بحر أزرق جميل هادئ، وسماء صافية، ورائحة البحر نافذة تصل إلى صدورهم ،توقف عن القفز فجأة، واعتصر كتفيها بقوة الحماس التي كانت فيه ونظر إلى عينيها يقول:

-نور أنا بحبك

وفي عامها الثالث والعشرين بعد سنتين من الثورة كانت تعيش أحلى أيام عمرها، فقد كانت تهيم عشقاً بإسماعيل؛ الذي بدوره كان يصب الحب والاهتمام كله بها، فجعلها كوردة نضرة كانت على وشك الهلاك، ورواها بعشق حلال، جعلها مليئة بالحياة وشغوفة بالازدهار ، ولم يعكر صفوهما إلا جدالهما الدائم في أمور الدين، وخلافهما على الحزب، وموقف والدها بعد أن اشتد الخناق عليه، وطرده من الحزب بعد قليل من تأسيسه كحزب سياسي، وأخذ إسماعيل مركزاً مرموقاً فيه على حساب الكثير من الكبار، ومن بينهم الشيخ أكرم نفسه، كثر اللغط حول أصوله الصوفية، وبدأت الاتهامات تتوجه إليه عندما بدأ في الجدال والنقاش والاعتراض على موقف الإخوان بعد عزل الرئيس

مرسي، وعلى ركوبهم موجة الثورة، وتظاهرهم بأنهم هم السبب في نجاحها، وما تلا ذلك من أحداث سياسية في هذا الوقت ، تم طرده من الحزب بحجه أنه دخيل وصوفي المذهب، وكان عميلاً للمخابرات في داخل الحزب وضدهم في كل شيء، وكان أكثر من حرض عليه ووجه له الاتهامات هو الشيخ أكرم بذاته.

-فاضل سنة تخلصيها الأول وبعدين نقرر ح نعمل ايه.

-أبوي استحالة ح يوافق عليك، دا يطيق العمى وميطيققش، ح نعمل ايه؟

- خلصي السنة دي بس ونشوف؟

حاربت الجماعة إسماعيل في عمله في الجامعة التي كانت مستوطناً لأعضائها، فقدم استقالته مضطراً بعد تهديدات واضحة باتهامه بقضية تحرش بإحدى التلميذات.

وكان أثناء هذا العام يراسل الجامعات في الخارج، وينتظر نور حتى تتم عامها الأخير.

* * *

(١٩)

خمسة أشهر كاملة نقلت منيرة من عالم إلى عالم آخر تماماً، لقد بحثت عنه طويلاً، فساقه القدر إليها يوم أرغمه أصحابه وأصروا عليه الحضور إلى هذا البيت المشبوه.

-يعني ربنا ح يغفر لي يا سي اسمعين، سألته منيرة ذات ليلة وهو جالس في حجرتها بكامل زيه، وهي تلف ملاءتها السوداء لتغطي جسدها كله.

-ربنا بيحبك يا منيرة، أنت قلبك أبيض، أنت كنتي جاهلة ومتعرفيش، بس كان في حاجة جواكي رافضة وأنت مش عارفه توصلي لها ولا الظروف ساعدتك حتى تعرفيها، بس نور ربنا جواكي ، فطرته إلى فطر عليه الخلق أجمعين، أنت فيكي شيء لله ، أنا طول الخمس شهور إلى فاتو دول وأنا بسمعك وبحكيلك،.... عارفه ساعات بحس أني بتعلم منك مش بعلمك

-طب يالله والنبي قبل الساعة ما تخلص كملي قصة سيدنا موسى

- ربنا يا منيرة لما كان بيحكي لنا قصة كانت بتكون ورائها معاني كتير ، احنا بقي لازم نتدبر الحكي دي ونشوف ايه إلي وراء المقصد والهدف منه، فمثلاً في أول قصة سيدنا موسى قتل إلي من شعته وطلع غلطان وقعد يس تغفر ربنا، وبعد كده عرف أن الناس بيتأمروا عليه علشان يقتلوه، كان خايف ومرعوب مع أنه كان عارف أن في ربنا، بس الخوف كان أقوى منه وهرب، في تاني امتحان في القصة لما طلب من ربنا القوة، ربنا قاله ارمي عصاك وحولها لحية تسعى فخاف سيدنا موسى برضه بس المرة دي كان أجمد شويه يا دوب خد خطوتين تلاته لورا بس، كان خايف جداً برضه بس أقل من المشهد الأول ، في تالت مشهد يوم فرعون ما جمع له السحرة ووقف ادامهم لوحده ولقي حبالهم بتتحول تعابين حصل له ايه ؟ (أوجس خيفه) يعني خاف بس بسيط أوي أوي مع أن المشهد كان أكبر وأعظم، وفي فرعون وجنوده وأهل مصر

كلهم بيتفرجوا ومستنين يشوف دا لوحده ح يعمل ايه ، في المشهد الأخير لما خلاص ربنا دربه وعلمه والإيمان أصبح راسخ في قلبه بقوة وعرف مدى عظمة وقدرة الله ، شوفي بقى هنا المشهد كان عامل ازاي ، البحر ادامه وفرعون وجنوده خلفه يعني ميت ميت لا محالة ، قال ايه هنا؟ قال(كلا)، (إن معي ربي سيهدين) يعني الموت محوطه لكن اعتقاده في قوة ربنا وقدرته أنه ح ينجيه ، قال لا مش ح اخسر وربنا معاي وح ينجيني وقد كان..شق له ربنا البحر وخلاه يعدي هو وإلي معاه، ولما فرعون راح يحصله رجع ربنا تاني البحر وطبقه عليه، وغرق فرعون وجيشه كله ، شفتي بقى القصة دي بحكي هالك ليه؟؟ علشان إلي يبقى مع الله وربنا ملي قلبه كله، الله يبقى معاه بس لازم تصدقي في أنه معاكي ومتخافيش ، طالما من قلبك نضيفة خلاص متخفيش ، بس زي ما قلت لك وبقولك لازم تمشيء من البيت النجس دا بأي طريقة.

-وأنا اهو على ايديك يا أخوي بحاول أشوفلي لي صرفة ، المشكلة أن المعلمة بتحبني ومسكه في

ومتبته ، والنبي يا شيءخ اسمعين ما تسبني وتبطل تيجيلي دا أنت لما بتيجيني روحي بتترد لي.

-متزعليش مني يا منيرة بس اليد قصيرة وما باليد حيلة.

-اتحايلت عليك يا خوي ادفع لك المعلوم أنا، وأنت مردتش

-قلت لك أنا صعيدي، وما أخدش من حرمة نكلة ولا نص حتى، الله عالم أنك من أول ليلة صعبتي علي، وحسيت فيكي الصراحة بنور إيمان غريب عمر ما كنت أتخيل أن لمؤاخذة يعني واحدة غانية تكون بالقلب دا، ولا بالروح دي، ولا عندها شغف تعرف عن ربنا وعن دينه ، أنا يا ست منيرة لسه تلميذ في الأزهر، يعني بتعلم وأبوي في البلد باع قراط أرض بحالة علشان يقدر ينزلني مصر وأبقى حاجة، وبيع الأرض على الرجال مش بالساهل واديكي شايفة أنا بشتغل شغلنتين علشان أساعد نفسي بس مسكن وذاد، ولما

بقدر أجيلك والله ما بتأخر، مع أني ربنا العالم بي لما بجيلك بيحصل في جتتي ايه؟

-ما أنا لفة نفسي وقاعدة مستورة زي ما طلبت.

يضحك إسماعيل وهو ينظر إلى الأرض، ويقول بصوت منخفض لا تسمعه منيرة:

-مستورة؟ دا أنت لهطة قشطة وأنت مستوره كده الله يسامحك يا شيخة..... ثم ينظر إليها، ويتوه في عينيها المكحلتين، ويتمتم بذات الصوت....

-أستغفر الله العظيم.... يا ست الله يكرمك أنت مش عارفة ظروفي ولا شكلي وأنا داخل وخارج من البيت دا، أنا إلي مطمني أن محدش من إلى يعرفوني ولا يعرفوا أهلي في الصعيد بيجو هنا ، احنا ناس بتوع ربونا وملناش في الهلس ، بس برجع وأقول أن ربنا هو إلى ساقني ليكي علشان يمكن أكون سبب في هدايتك ، بس بتعب والله بتعب لما بجي هنا بتعب والله.

- طيب يا أخوي الله يعينك، معلش حقك عليَّ ، اعمل الخير وارميه البحر.

تملكها حب الله ورسله وقصصهم وأوليائه..... وحب إسماعيل، كتمت مشاعرها فكيف لمثلها أن تحب وتحب.

ولكنها تركت لها العنان في أحلامها. كانت تراه بملابسه البيضاء ، يركب حصاناً رماحاً في حقول خضراء واسعة، تحاول أن تجري خلفه، ولكنها تجد نفسها مقيدة بسلاسل غليظة، فتحاول أن تنزعها فلا تستطيع.

زهدت في كل شيء؛ البيت ومن فيه، الزبائن وأموالهم، حسد البنات لها، وأصبحت رقيقه التعامل فلم تعد تقسوعليهن.

-أنت بتتكلمي جد يا أبلتي منيرة ، يعني مسامحة في الليلة دي؟

-أه يا اختي مسامحة ، خدي كل يا ريت مش عوزه أشم حتى ريحتهم.

قالت مرة لإحداهن.

علمها إسماعيل التطهر والوضوء والصلاة، وكانت تقفل باب حجرتها على نفسها كل ليلة، وتسجد لله باكية ذليلة ترجو رحمته وغفرانه.

-ادعي يا منيرة كتير.

-أقول ايه يا سي سمعين؟

-قولي كل إلي يجي على لسانك.

-يعني أكلم ربنا زي ما بكلمك دلوقت كدهون.

-اه زي ما بتكلميني ، قوليله أنك مغصوبة ومش برضاكي ، اطلبي منه ينجيكي من الهم والغم إلي أنت فيه.

حوادة الكتب حرامية

-ح يسمع من واحدة لا مواخذة شغلتها تريح الزبون ،... قالت وهي تعضّ شفتيها، وتحكم غلق عباءتها.

-ح يسمع يا منيرة وح يستجيب والله ربنا غفور رحيم وبيحب توبة عباده.

-عوزه أطلب منك طلب الله لا يسئك، الأسبوع الجاي مشور الاسبتاليه إلي بختم فيها المدعوق التصريح، وكنت من مدة نفسي أزور سيدنا الحسين تجيش يا أخوي معاي وتقابلني هناك.

-وهما ح يسبوكي تروحي لوحدك؟

-لا البت قصدي الواد سكسكه هيجي معاي ولازم فتوه كمان بس أنا ح اديله نكله ويخليني أروح أزور.

-روحي يا منيرة أنت مش محتاجاني معاكي، روحي لوحدك وزوري وصلي وادعي واقرئي الفاتحة بس بنيه كرامة أهل البيت، مش هما أهل البيت إلي بينجو ولا بيشفو ولا بيعملو حاجة لحد زي ما اغلب إلى بيرحو

بيعتقدو كده، ربنا وحده إلي بيعمل وهما من ريحة النبي العدنان نزروهم محبة ولطف.

-حاضر يا أخوي فهمت.

كانت منيرة تتمنى أن تقابله أكثر من تلك الساعة المحددة المدفوعة الأجر، والتي كانت تنتهي كدقيقه واحدة بالنسبة لها، كانت ترى نفسها تمرح معه ويتجولان في الأسواق، يجلسان على ذلك النهر الذي سمعت عنه من زبائنها ، أو تلك الحدائق المنتشرة في ربوع مصر الخضراء، والتي لم ترَ أي منها في حياتها.

في إحدى الليالي استيقظت منيرة قبيل الفجر على ألم في قلبها، جعلها تشهق شهقة أيقظت سكسكه المخنث النائم على باب حجرتها.

-في حاجة يا أبلتي ؟ سألها سكسه من خلف الباب مرتعباً.

رأت فيما يشبه المنام أنها تجلس وسط جمع كبير من الناس مألوفة الوجوه، وهذه المرة لم تكن في تلك

الأماكن الخضراء أو في البيت العتيق ذي المبخرة النحاسية والأناشيد المبهمة، بل رأت أناساً كثيرين يرتدون ملابس سوداء، وغرباناً كثيرة تحوم حول شيء ما، وعندما اقتربت من ذلك الشيء، رأت نفسها جثة ملقاة على الأرض، غارقة بالدماء، وتجثم فوقها سيدة تحمل سكيناً كبيرة تذبحها بها.

كانت تلك السيدة هي فطومة الإسكندرانية

ارتعدت فصائل منيرة من الخوف، ولم تحكِ الحلم لأحد، وإن حاولت تفسيره جاهدة علها تصل إلى شيء لكن دون جدوى، وهي المرة الأولى التي ترى في أحلامها حلماً غير تلك الأحلام التي قاربت على أن تصدق أنها حياة متكاملة تعيشها مع شبيهتها وإسماعيل وأشخاص طيبين تراهم كل ليلة وتجلس معهم يتسامرون.

الأماكن إلى الكنانة تهني..... آل مصر قد جاء من أناب عني

نحن في ساحة الحسين نزلنا..... في حمى الله من أتى لحسينا

يا حفيد الرسول جئنا رحابك ..... منبع الجود مصدر الكرمينا

يثرب شرفت بهجره طه..... يا هنا بمصر يوم جاء حسينا

(العارف بالله ،أحمد أبو الحسن)

دخلت إلى الساحة الخضراء ذات المرقد المحاط بسور ذهبي خالص، والنوافذ المعشقة المليئة بالمناديل القطينة، وشرائط الأطفال الملونة، وطرحات سيدات بسيطة، وقفت ترتعش وهي داخلة إلى مسجد الإمام الحسين رضي الله عنه وأرضاه ترتعش وتبكي متذكرة حديثاً دار منذ قليل.

-مش أنت يا أختي إلي كنت بتيجي لنا زمان مع الست فوزية .... قالت حكيمة مستشفى الحوض المرصود.

-أيوه يا أختي وأنت لسه فكراني؟ وفاكرة فوزية؟

-الست فوزية الله يرحمها كانت هنا عندنا قعدت شويه عيانة بعد الضرب إلي المقاطيع عندكم ضروبها لحد ما ماتت ومافيش دكتور عرف يعمل لها حاجة.

-ازاي دي قتلت واحدة في البيت.

-لا يا أختي هي حكت لي على كل حاجة، أصل أنا كنت الحكيمة إلي ملازمها، وقالت لي على يوم الحادثة، وإلي حصل وكمان حكت لي عنك واد ايه هي بتحبك، وكانت ديما تقولي أنها بتشوفك في مكان جميل كله خضرا، كانت بتوه منا وتفوق تقول منيرة قاعدة هناك اهو عند النهر ، ووصتيني أني اقولك لما تجي المرة إلي بتجيها كل تلات شهور للختم، بس أنا غبت مده كده لظروف ولسه راجعة ، وكويس أنك جيتي علشان أقولك علشان دي كانت أمانه في رقبتي.

وروت لها الحكيمة: أنه كان يوم علمت فيه فطومة وحسنية أنها تصلي وتدعو منيرة إلى الهداية والهرب

من البيت، فاتفقتا على التخلص منها، وقتلها دون علم أحد، وتدعيان بعدها أنها قد ماتت ميتة طبيعية، ويتم دفنها بعيداً عن البيت ومن فيه ، ثم دخلتا عليها وقيدتها حسنية، وأمسكت فطومة السكين المستخدم لذبح البهائم لذبحها فقاومتهما فوزية، وحدثت مشاجرة انتهت بغرس فطومة السكين في عنقها من شدة تحكم فوزية في يديها، ولما أفلتتها أخطأت فطومة، ورشقت السكين في رقبتها، فماتت على الفور، وعندما صرخت فوزية -كانت هي فوق فطومة- خرجت الفتيات ورأين المنظر، فأحكمت حسنية القصة بأن فوزية القاتلة، وسحبها الفتوات للخارج وهي تصرخ من هول الموقف، فلم يتبين لأحد ماذا تقول، وانهالوا عليها ضرباً حتى اعتقدوا أنها ماتت، فألقوها في حارة بعيدة. وجدها بعض المارين فأتوا بها إلى هنا، ورجع الفتوات إلى البيت واهمين من فيه أنهم سلموا القاتلة إلى الشرطة.

وقفت خلف السور الأخضر تسمع المنشدين والمريدين يغنون.

يا ابن طه البشير جئنا بباك.... وشرفنا هنا بلثم عتابك

يا حفيد الرسول جئنا رحابك..... منبع الجود مصدر الكرمينا

رحمه الله للبريه عطاها..... من قرن ذاته بذاته واصطفاها

نحن في ساحة الحسين نزلنا..... في حمى الله من أتى الحسينا

جاءها ذات مرة في غير موعده وهيئته، يظهر عليه الإعياء الشديد، عيناه حمراوان كالدم، توضحان عدم نومه منذ عدة أيام، نظر إليها في مرقدها وأطال النظر، وأمسك بعمود السرير الذهبي يلهث كانه يجري منذ زمن قائلاً:

-تتجوزيني يا منيرة؟

* * *

(٢٠)

تغيرت أخلاقيات الشارع المصري كثيراً بعد ثورة يناير كما تغيرت نور، فقد اكتشفت خدعاً كثيرة، ومعتقدات وهمية عاشت فيها وبها ولها عمراً طويلاً، وزادت حدة خلافاتها مع إسماعيل حول محاور جوهرية في حياتها.

كانت نور في السنة النهائية في الجامعة، وكان قد مر على مدة حكم الإخوان وعزل الرئيس مرسي سنة كاملة، سنة غيرت نور كلياً، سنة كانت بالثلاث والعشرين سنة التي عاشتها.

في سنة حكم الإخوان ووصولهم إلى الحكم، عاشت نور داخل حزب الإخوان المسلمين، ورأت وسمعت بأذنيها كيف وصل الإخوان إلى الحكم، وأي قوه خارجية تعاونت معهم لإنجاح هذا الأمر.

في البداية كانت نور تؤمن بأن هذه الثورة هي ثورة شباب آمنوا بقضيتها وماتوا شهداء فداء لها ، مات

أصدقاؤها ودفنتهم بيديها، وأصيب من أصيب وظل ذا عاهة بقية عمره ، كان يوم تنحي الرئيس السابق حسني مبارك من أحلى أيام عمرها ، حلم تحقق وأمل بعيد صار واقعاً ساهمت في صنع وجوده ، ولكن ما أشعل نار قلبها هو أن يسرق كل هذا وينسب إلى جهة واحدة ، وأن تُسلح الثورة الشبابية السلمية بأسلحة تعلم جيداً مصدرها ولمن وأسباب وجودها ، وأن تعقد صفقات مشبوه بأموال طائلة، وأن تبيت النية لتقسيم البلد، وهي من كانت في قلب الحدث ورأت أباها وزوج عمتها في المطبخ السياسي للحزب يعقدون الصفقات، ويحضرون الأموال السائلة في (اشوله)، ويعقدون الجلسات في منزلهما في الإسكندرية، اللذين لم يثيرا الشك عند أحد، رأت كيف وصل مرسي إلى الحكم، وهو لا يمتلك المهارات الكافية لملء هذا المنصب، ولكن الجماعة اضطرت إلى وضعه كبش فداء تنفيذاً لأوامر عليا، خسرت فيها مصر الكثير والكثير ، وهي التي كانت تذوب عشقاً في تراب بلدها، وأحداث كثيرة اطلعت عليها جعلتها ترمي بكثير من الآراء والمعتقدات عرض الحائط..

خلعت نور نقابها في البداية بعدما اقتنعت أنه فضل وليس فرضاً، وإن كانت مازالت تخرج به إلى الشارع أمام أبويها وجيرانها وتخلعه عند أول ناصية،

ووقف إسماعيل معترضاً عندما أرادت خلع حجابها.

-بصي يا نور، الحجاب فرض لا خلاف عليه.

-لا في خلاف على الآراء كلها.

-ربنا مش محتاج حجابك أنت إلي عوزه ترضيه بكل إلي أمرك به.

-في حاجات كتير أقدر أرضي ربنا بها غير حتة قماش على شعري، ربنا ساب لنا الباب مفتوح ومجعلوش راي واحد ثابت بدليل أن مافيش كلمة شعر في أي من آيات الحجاب زي ما ربنا ذكر ووصف بكلمات محددة أجزاء من الجسم بالاسم المحدد، علشان هو عارف جلا في علاه أن في أزمنة ح تيجي ح يكون الماسك فيها على دينه زي إلي ماسك نار بالظبط ، ساعتها إلي ح

يكون بس بيأدي الفرائض الخمس من المبشرين بالجنة.

-أنا تعبت من الجدال معاكي ، وفي الآخر أنت حرة أنت إلي ح تقابلي ربنا وتقفي ادامه ، محدش ح يتحاسب بدال حد ومحدش ح ينفع حد يوم الحساب.

-أصلاً في حاجات كتير لازم نقف عندها ، أنت شايف أن في عدل في الدنيا دي ، شايف إلي حصل بعد الثورة دا عدل ، ليه في ناس ماتت واحنا عشنا؟ ليه في أطفال اتشردت؟ وبيوت مينفعش بني ادام يعيش تحت سقفها واحنا بناكل ونشرب ونتفسح ومبسوطين؟ وايه فضل إلى اتولد في بيئة صالحة وإلي اتولد في بيت فاسد وطلع منحرف؟ ليه في حد عنده كل حاجة ، فلوس وصحة وعيال ومتهني، وواحد عنده أمراض الدنيا وفقير ومتبهدل؟ ليه؟ ها رد على فين العدل إلي ربنا سمى نفسه باسمه ؟

- علشان تعرفي أن نظرتك ضيقه وأن دراسة الفلسفة مسحت نفوخك من بعد ما أنا مشيت من الجامعة

والله أعلم جابو لكم مين، الدنيا أصلاً مش دار قرار، دي دار اختبار مؤقتة لمرحلة الحياة الدائمة وبالتالي ملهاش المقايس إلي احنا كبشر بنقيس بها ، دي حاجة ، تاني حاجة خلق الله الخلق ووزع الأرزاق، وكتب لكل واحد في كتابه من قبل ما يتولد ، ودا بيتغير بشيء واحد فقط ، ألا وهو الدعاء (اللهم إن كنت قد كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً أومحروما، فأبدله ... وخده بالك فأبدله واكتبني سعيداً... إلى آخر الحديث ،) قاطعته نور غاضبة:

-مهو دا لو بيفهم في الدين ويعرف معنى الدعاء، افرض واحد في مجاهل افريقيا ولا في القطب الشمالي

-سيبيني أكمل لو سمحتى،، الناس ليست كلها متساوية طبعاً في الدنيا (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم) وآيات كثيرة غيرهم تدل على نفس المعنى ، أن في

تفاوت في الرزق والدرجات ....طيب ازاي يبقي امتحان والناس بتمتحن نفس الورقة وهما مش متعلمين في نفس المدرسة ؟ صح مش دا قصدك، علشان عدل الله هنا يتجلي في التقييم، ولله المثل الأعلى ، لو عندك مدرسة بتصحح ورقة طالب عندها وهي عارفه كل ظروفه من أنه مثلاً أعمى ولا يتيم ومعندوش حد يساعده، وورقة طالب تاني ابن ناس وغني وعنده مدرسين خصوصين ، ح تصحح زي بعض ، بالطبع لا ، إلي دخل الامتحان وحرارته ٤٢ وبيموت زي إلي دخله وهو بيشرب لبن حليب وصحته بمب ، لا ..إلي داخل وهو عمره ٩٠ سنة وبيذاكر طول عمره ولا إلي داخل عمره ٣٠ بس ومات في عز شبابه ، يتساوي ؟، طبعاً لا .. إلي عاش في أيام النبي وجنبه وشاف بعينه معجزات زي إلي عايش في زمنا دا ،،، طبعاً لا.

يبقي هنا أنت تعتمدي على المصحح، واضع المنهج ، إلي مطلع على كل نفس ايه وفين وازاي ،، في حديث يا نور عن النبي العدنان . صلي عليه.

-عليه الصلاة والسلام ،،، قالت نور وقد هدأت قليلاً.

-قال ايه (إنكم في زمان علماؤه كثير وخطباؤه قليل ، من ترك فيه عشير (أي عشر)ما يعلم ..هلك ، وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشير ما يعلم ..نجا) فمتخافيش ربنا له معايير كثيرة في التقييم احنا منعرفهاش، الحساب أعقد وأعمق مما نتخيل وبلاش نحط نفسنا مكان ربنا ونقول: ايه الصح والعدل وايه الحرام والظلم، لأننا مش احنا إلى خلقنا الناس دي ولا نعرف حاجة عن حسابهم ، كل واحد ح ياخد حقه بالذرة ومحدش ح يتظلم (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب) صدق الله العظيم إلي بيقول عن نفسه لا ظلم اليوم لاااااا نفي قاطع نهائي ، ، (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)، عوزه ايه اكتر من كده ؟

-عوزه الناس كلها تعيش كويسة ومبسوطة،

-اشتغلي على نفسك وكوني سبب في دا وادعي ربنا يستخدمك لخدمة البشرية وجعلها أمان وخير وسعادة للي تقدري توصلي لهم، وأنت تقدري يا نور توصلي للعالم كله لو حبيتي، تقدري تغيري العالم كله لو كان دا حلمك شوفيه حقيقه واوصلي له

كانت نور دائما تقتنع بآراء إسماعيل وكانت تجله وتحترمه، كما أنها كانت كثيرة الجدل مع أبيها وعمتها الكبرى في أمور شتى.

احتد النقاش ذات يوم بينهم عندما جاء أبوها ليبلغهم -وكانه أمر اعتادوا عليه وأصبح فقط للعلم بالشيء ليس إلا- بزواج جديد، ولكن هذه المرة كانت الفاصلة بالنسبة لنور؛ فقد كانت العروس صديقة لها من المدرسة الثانوية، وكانت فتاة لم يسبق لها الزواج من قبل.

-ح تتجوز واحدة في سني يا بابا؟ قالت نور غاضبة، أما أمها التي كانت بجانبها فلم تعد تناقش أو تستفسر أو تعترض.

-وماله شرع ربنا.

-شرع ربنا قال تتجوز وتطلق وتخلف عيال حتى منعرفش عنهم حاجة؟ تتجوز بنت عمرها ٢٣ سنة، ادي ؟ ليه؟ وتتجوز ليه أصلاً؟

-بكره لما أموت تبقو تعرفهوهم، خايفة على الورث طبعاً؟ وأنت مالك اصلاً اتجوز ليه؟ أنت بتدفعيلي حاجة من جيبك؟

-ورث ايه، احنا عمرنا ما طلبنا منك تعرفنا أنت عندك ايه ولا بنسال على فلوس، أنا بتكلم على المبدأ نفسه؟ ربنا ليه أحكام في الجواز التاني وراجع الآيات كويس، ليه آية الجواز التاني مرتبطة بآيات قبلها عن اليتامى؟ أنا مش ح افتي في الدين لكن إلي أعرفه أن ربنا ميرضاش بالظلم وأمي مظلومة وميرداش بكسرة القلب وأمي يا ما قلبها انكسر.

-أنت يا بت امبارح جايه تقولي للشيخ أكرم اللبان اقرأ واعرف ، دا أنا الكتب إلى قرأتها توزنك، وأنت تتكلمي

ليه أصلاً ، ملكوش عندي غير التبليغ أنا مش جاي أستاذن منكم ، أنتم مين أصلاً علشان آخد أذنكم ، يا حبيبتي الستات مخلوقة جنس تاني، حاجة مساعدة كده لينا وبس ،

-مين إلي قال كده بقى حضرتك؟

-ربنا لما خلق ستنا حواء خلقها علشان تؤنس سيدنا آدام وتخلف له ذرية وبس ، اعرفوا مكانتكم كويس قبل ما تتكلموا . مش علشان سمحت لك تحت ضغط أنك تتعلمي وتروحي الجامعة ح تفتكري نفسك بقيتي شيئاً أنت، نكرة، ناقصات عقل ودين ملكوش غير أنكم تؤأنسونا وتخلفوا عيال فقط لا غير.

-وزواجات النبي والسيدة خديجة إلي كانت بتعمل وعندها تجاره لوحدها ؟ وإلي كانوا بيحاربوا ويعالجوا المرضى في الحروب دول برضه جنس نجس وناقصات عقل ودين؟

-وأنت ح تشبهي نفسك بزوجات النبي؟

-وليه لا مش هما قدوتنا؟

-لا ..الزمان غير الزمان، ودول كانوا فوق البشر

-الحياة واحدة وربنا كتب على كل الخلق العمل والعباد متساوين.

-لا طبعاً وإلا مكنش ربنا قال الرجال قوامون على النساء.

-بما فضل بعضهم على بعض ، كمل الآية حضرتك لو سمحت ، ثم أن الرجال هنا مش بمعنى الرجال الذكور ، المعنى هنا مختلف تماماً ودا سبب أن الناس حافظة مش فاهمه المعنى الحقيقي وراء الآية ، الرجال هنا بمعنى المترجلين الذين يمشون في السعي والعمل أفضل من النساء من النسئ الجالسون بلا عمل.

- يا سلام ، بتألفي حضرتك وح تفسري القرآن على مزاجك.

-يا بابا اقرأ ... ولم يعطها فرصة بل ثار عليها ثورة عارمة

-اخرسي خالص أنت اتجننتي وأنا ساكت لك من مدة وإلى عمليته في الحزب وخليتي رقبتي اد السمسمه ولولا أني قلت لهم إنك تعبانة نفسياً من بعد أحداث رابعة وإلي شفتيه وأصحابك ال ماتو بين ايديك كان زماني مطرود،

-حزب ؟ هو حضرتك مش تخرجت من الحزب وقلت أنا مش منهم ودول جماعه إرهابية

-دا كلام أنت صدقتي ؟ داعلشان نبعد عنا العين وماضطرش أسافر على قطر ولا تتحجز أموالي وأشغالي ، أنت مش شايفة إلي حاصل في البلد من ساعة العسكر ما مسكو البلد والبهدلة إلي متبهدلينا ، نمشي جنب الحيط شوية لحد ما ربنا يفك الأزمة دي ونرجع تاني للصورة ونحكم بشرع ربنا ، وربنا ح ينصرنا قريب أوي وح تشوفي.

-ربنا مش بينصر إلي بيكدبو ويخادعو الناس ويتفقو مع بلاد غربية على تقسيم بلدهم علشان فلوس.

-اخرسي يا قليلة الأدب أنت عيارك فلت ومش لاقيه إلى يربيكي وأنا ح أعرف اربيكي ازاي ،،، وقام يضربها ضرباً مبرحاً إلى أن استطاعت أمها وأخوها تخليصها من يديه.

-الحيوانة دي متخرجش من باب البيت لحد ما أشوف لها صرفه، متخرجش من دلوقت ورايح وتولع الجامعة إلي بوظت لها دماغها دي، مافيش موبايل ولا فلوس وتقعد في أوضتها زي الكلبة تاكل وتشرب بس، وأنا ح أخلص شهر العسل وارجع لها أشوف لها حل.

-الحل عندي... قالت العمة الكبرى التي كانت تراقب الموقف في صمت وتبتسم ابتسامة خبيثة.

أختك نعمة جاية من السفر أول السنة، عوزة تاخد نور لابنها مصطفى، واهو زيتنا يبقى في دقيقنا وفلوسنا متطلعش لغريب واحنا أولى بلحمنا.

* * *

(٢١)

عاشت منيرة أياماً عدة مصدومة مذهولة بعد أن عرض عليها إسماعيل الزواج فجأة، كيف لها أن تتزوج وتخرج من هذا البيت؟ كيف له أن يطلب مثل هذا الطلب وهو يعلم تمام العلم أن بشراً قد سبقوه إليها؟ نعم بجسدها فقط وليس بقلبها ولكن أي رجل يقبل أن يتزوج من غانية؟ هل من الممكن أن يكون حباً وهمياً سيطر عليه وسيفيق من وهمه ويعيرها ما بقي من عمرها على ماضيها؟ هل اجتاحته نزوة وأراد أن يأخذها في الحلال، وما إن انطفأت نار جذوته حتى يعود إلى رشده؟ كيف سيقدمني إلى أهله وماذا يقول إذا سألوه عن أهلي الذين لا أعلم شيئاً عنهم ؟ وماذا سأفعل؟ هل أصلح زوجاً وأماً ؟ أدير شؤون منزل وأحمل ولداً وأعتني بأطفال؟ كيف وأنا لا أفقه في هذه الأمور شيئاً؟ لم أطبخ من قبل ، كل طلباتي مجابة تحت قدمي ، لم أعتد الخدمة والمراعاة، ولم يطلب مني ذلك في يوم من الأيام ، حتى ملابسي تفصل لي خصيصاً وتغسل وتأتي إليَّ جاهزة ، لا لن

أوافق على هذا الطلب ، نعم أحبه وهو الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي ، هو من حرك سلاسل قلبي المغلقة، هو من فتح لي ذات يوم باب معرفة الله وأقدر له هذا ، لم يستغل جسدي كباقي من عرفت ، لم يهنني أو يعاملني معاملة الغواني ، ولكني سأرفض حباً به، لن أضعه في هذا الموقف، ولن أضع نفسي كذلك، سوف أخبره بقراري في زيارته القادمة، وسوف أضع حجراً على قلبي قبل أن أطلب منه ألا يأتي هنا مرة أخرى، فكفاني ما عرفت والله بي خبير، سأصلي وأستغفر ولكن ما باليد حيلة ، فأين سأذهب ولمن ؟ لا أعلم لي أهلاً ، معارفاً ، أقارباً ، أي أحد . أي أحد يساعدني؟؟؟ ولكن ليس لي إلا هذا البيت سبيل، والخروج منه فقط إلى القبر ما بقي لي من عمر.

عقدت النيه على هذا بعد أن أمضت ليال لم تذق فيها النوم تفكر في الأمر، وانتظرته

ولكنه لم يأت في موعده.

-مالك يا بت يا منيرة فيكي ايه ؟ دبلانة وسرحانة كده على طول وعينك على الباب كل ما تنزلي؟ تكنيش بتحبي يا منيلة؟ ... سألتها المعلمة حسنية ذات يوم ثم أردفت:

أوعي يا بت الحب للي زينا هلاك، وفي الآخر تتجوزي وتبقي زي الستات إلي بنسمع عنهم ورجالتهم تيجي لنا تلعن اليوم إلي شافوهم فيه ويروحو ياخدو مزاجهم بره ، احنا متخلقناش للحب ولا الحب اتخلق علشان ، دا كلام فارغ بيقولوه المغنواتي علشان ياكلو بيه عيش ، احتى سلطانة كده والرجاله يجو تحت رجلك وينغناغوكي ، لكن واحد يقولك اتجوزك ويضحك على عقلك لا ،، اسمعي مني دا أنت بتي إلي طلعت بيها من الدنيا وخايفة عليكي وعوزه مصلحتك، الرجال كلهم كذابين ومافيش حاجة اسمها حب ، فاهمة يا بتي؟

-أحب ايه بس يا أبلتي وأحب مين ولا مين يحبني؟

-امال مالك؟

-مافيش يا أبلتي زهقانه شويه،

-طب أومي الواد سكسكه يجبلك حجر معمر يظبط دماغك، أنا من زمان مش شيفاكي بتشربي ، حتى الكاس مبقتش بشوفه في ايديك زي زمان ، لا أنت فيكي حاجة وأنا لازم أعرفها.

ارتبكت منيرة فهي لا تود أن تعلم حسنية بالذات بأي تغير فيها وتذكرت حادثه قتل فوزية وأسبابها.

-لا لا خالص دا أنا شاربه امبارح لما اتعميت حتى اسألى الواد سكسكه، صح ياواد ؟

لم يعلم سكسكه ماذا يقول ولكنه تجاوب معها وأيد كلامها.

-اه والنعمة يا أبلتي حسنية، بعتتني امبارح للخواجة يني وجبتلها ازازه اربعتها لوحدها ومردتش تديني حتى بوق.

ضحكت حسنية وقد استراح قلبها قليلاً.

-طب أومي روحي الحمام ادعكي يفوققك شويه.

أربعة أسابيع كاملة لم يأت فيها إسماعيل إلى أن فقدت الامل في رؤيته، وقالت في نفسها: إنه من المؤكد قد استعاد وعيه بعد هذا الطلب، وراجع نفسه وعلم مدى استحالة هذه الخطوة، يجب أن أنساه وأنسى تلك الليالي التي مرت علينا، وسأربط على قلبي حجراً حتى لا يعاوده الحنين.

وانشغلت بعملها وحياتها على الرغم من مرارة الشعور الذي كانت تشعر به إلا أنها تحايلت وحاولت النسيان بالفعل.

وذات مساء وهي ترقد على سريرها الذهبي ذي ستارة الشاش البيضاء تنتظر دخول إحدى الزبائن، وترتدي ثوباً شفافاً أحمر اللون، وترتدي ملابس داخلية سوداء تحته تظهر مفاتنها بشدة ، طرق الباب ثلاث مرات ثم فتحه فقال سكسكة قوله المشهور:

-زبون يا أبلتي..... ويدفعه إلى منتصف الحجرة ويغلق الباب خلفه بقوة.

فوجئت بإسماعيل يقف أمامها.

-سي اسمعين ؟ قالت متعجبة مندهشة مصدومة، ثم قفزت باحثة عن شيء يسترها فلم تجد، غير أنه أمسك بها بكلتا يديه وقبلها قبلة أذابتهما معاً.

-قولي يا منيرة أنا قبلت زواجك.

لم يكن الموقف يسمح لها إلا بالموافقة على ما يطلبه منها.

في هذه الليلة ذاقت منيرة معنى الحب بمفهوم جديد. علمت أن كل ما تعلمته من فنون الغواني كان كذباً، فهي لم تشعر بأنها أنثى ذات مشاعر وأحاسيس إلا في حضن إسماعيل ، سبع سنوات تعمل كغانية لا تعلم عملاً آخر، ولم يسبق لها أن شعرت بمتعة أو نشوة في حياتها، بل لم تكن تعلم أن للمرأة متعة في هذه العملية، وعلمت أن دورها فقط أن تريح الزبون،

ويخرج من بين يديها منتشياً سعيداً، لم يقل أحد لها في يوم من الأيام أنه سوف يخالجها الشعور ذاته، وأنها من الممكن أن تكون منتشية سعيدة أيضاً.

رمت نكلتين تحت الباب، وأخبرت سكسكه أن الزبون يريد مدة أخرى، وأنها سوف تنام بعد أن يخرج فلا عمل آخر اليوم، وأمرته ألا يطرق الباب عليها لأي سبب كان.

بات إسماعيل في حضنها طيلة الليل كطفل تائه وجد أمه بعد سنين، كعصفور صغير تعلم الطيران، وفرح بجناحيه وفردهما حتى طال عنان السماء، وكمحب عرف معنى الحب واشتاقه وشرب من نهر الحياة.

-أنت كده مراتي يا منيرة خلاص ، من الليلة دي محدش يلمسك ولا يلمحك، لازم تهربي ونسافر بعيد عن هنا وإلي في البلد ، محدش له صالح بينا ، ولا حد يعلم لنا طريق جره.

-وشهادتك يا اسمعين.

-ملاهاش تلاتين لازمه، دي أمنيه أبوي إلي مليش أنا فيها أي حاجة ، مش عوز أتعلم ولا هباب ، اشتغل أي شغلانة تاكلنا عيش والسلام، أنا صحتي زي البمب أقدر أشتغل ٢٠ ساعه في اليوم وأهنيكي واستتك، في واحد تعرفت عليه من مدة بيشتغل في البنا في اسكندرية وعدني يشغلني معاه حمال، ونعيش مستورين سوا وبس وربك الرزاق.

-وح تقول لأهلك ايه ؟

-مش عارف

-طب ح اطلع من هنا ازاي؟

-برضه مش عارف بس المهم نبقى مع بعض، ربنا عنده الحل.. قال ذلك وهو يأخذها بين أحضانه ويقبلها بين عينيها.

* * *

(٢٢)

في ليلة مقمرة وقفت نور خلف زجاج نافذتها في ترقب واضح وقلق شديد، أشارت الساعة على شاشة هاتفها المحمول إلى الرابعة فجراً، بقي أقل من نصف ساعة على موعد استيقاظ من في البيت لأداء صلاة الفجر، وإذا ما استيقظوا فسوف تفشل الخطة نهائياً، سوف يأتي الأقارب والجيران في ساعات الصباح الأولى، وسوف تبدأ التحضيرات والتجهيزات، وسينصب عمال الفراشة السرادق الكبيرة أمام البيت.

وفي مكان آخر كان إسماعيل يقود سيارته بسرعة بالغه حتى يصل إليها في المكان المتفق عليه.

منذ أسابيع كان من المفترض أن تتوجه نور إلى كليتها التي شارفت على الانتهاء، كانا قد اتفقا على كل شيء، استخرجت نور جواز سفر وأعطته لإسماعيل، وتوجها إلى منزل إسماعيل الذي كانت عائلته هناك تنتظرهما، وتم عقد قرانهما على يد شيخ صديق للشيخ مصطفي الملواني والد إسماعيل ، كانت العائلة على علم

بمجريات الأمور، وكيف أن الشيخ أكرم اللبان سوف يزوج ابنته من ابن عمتها أو يقتلها إذا رفضت ، فكانت الخطة كما تمت أن يتزوجا وتوهم والدها أنها موافقة على الزواج من ابن عمتها طمعاً بإنهاء عامها الأخير في الكلية، وينهي إسماعيل بالتالي أوراق سفرهما.

في هذه الليلة استقل إسماعيل سيارته ليكون في الرابعة تماماً على ناصية البيت، فتأتي نور إليه ويستقلان السيارة إلى القاهرة ويصلا في السابعة إلى المطار.

ثوان كثيرة كانت فاصلة ليلحق إسماعيل بموعده، ولكنه تأخر بعض الوقت، عندما وصل وجد أنه قد نسي أن يشحن هاتفه النقال، أشارت الساعة إلى الرابعة وخمس دقائق، وإسماعيل أسقط بين يديه، كيف يتصرف وهو يعلم أن الشيخ أكرم يستيقظ في الرابعة والنصف؟ كيف والهاتف لم يعمل بعد أن وضعه على شاحن سيارته، الذي اكتشف بعد عشرة دقائق كاملة أنه لم يعمل لأنه لم يدر محرك السيارة ليعمل الشاحن على بطاريتها، مرت خمس عشرة دقيقة كاد

قلب إسماعيل أن يتوقف أثناءها، ليس لديه احتمالات للفشل ، فقد استخار الله كثيراً قبل أن يقدم على الزواج ممن أحب وارتضى لها أن تكون أماً لأولاده، ولكن تعنت والدها وكرهه له جعله في موقف لا يحسد عليه، خمس دقائق أخرى مرت وهو يدعو الله بكل الأدعية أن يعمل الهاتف، بدأ الهاتف يعمل فكتب الرسالة إلى نور:

-أنا وصلت وأقف في المكان الذي اتفقنا عليه.

دقائق مرت كالدهر، وقد علم أن نور قد شاهدت الرسالة ولكنها لم تأت وبينه وبين بيتها عدة أمتار قليلة ، يقف على الناصية المجاورة للبيت.

ثم ما لبث أن رأى نور تجري مضطربة، ويسمع هرجاً ومرجاً وصوت والدها الجهوري وهو يصرخ ويصوب مسدسه إليها عبر النافذة المطلة على الشارع من حجرتها.

تسمر في مكانه ولم تساعده قدماه على الذهاب إليها، وكانت الخطة ألا يظهر إسماعيل في أي حال من الأحوال،

اقتربت نور وماهي إلا ثوان وتكون معه ولكن ....

يقول إسماعيل وهو يمد إليها يديه:

ح تلحقي يا نور اجري ، أنا مستنيكي.

لم تعلم هل تلك الرصاصة التي شعرت بها قد اخترقت ظهرها، وأن رائحة البارود والدماء تلك خارجه منها ؟ أو لا؟

كان هذا يوم عرسها على ابن عمتها مصطفى، الذي رتب والدها كل شيء له، هل سيكون يوم عرسها في الجنة إذا ماتت الآن شهيده حبها؟

-لازم نهرب يا نور، أنت دلوقت حرة نفسك وأبوكي ظالم ومش ح يوافق علي بعد كل إلي حصل وربنا ميردناش بالظلم ، احنا ح نتجوز على سنة الله ورسوله

وح نسافر ، طلبوني في جامعة إسلامية في مالىزيا وبمرتب يعيشنا كويس جداً ، أنا ح احجز تذاكر السفر وح أرتب كل شيء وح اجي اخدك ونطلع على المطار على طول ونعيش حياتنا في مكان يسعنا ويساع حبنا وطهرنا ونقدر فيه نحقق كل أحلامنا.

-ونسيب مصر يا إسماعيل ، مصر البلد إلي بنعشق ترابها؟

-مؤقتاً بس لكنا يوم لازم ح نعود بعد ما الغشاوه إلي على عينهم تروح وح نرجع أقوى من دلوقت ، بعلمنا وفهمنا.

تتذكر حوارها مع إسماعيل قبل شهر من تلك الليلة.

شعرت نور بصوت الرصاصة يخترق ظهرها، ولكن إرادة الله شاءت أن تتعثر بحجر وتقع على الأرض في لحظة وصول الرصاصة إليها.

حجر صغير كان السبب في نجاتها ونجاته.

وأكملت إلى وصلت إلى إسماعيل في اللحظة المناسبة.

* * *

٣٣

(٢٣)

في ليلة مقمرة ومن داخل حجرتها التي تطل على الشارع والباب الرئيس للبيت، وقفت منيرة خلف النافذة الخشبية المتهالكة تنظر في ترقب وحذر، دقت الساعة الخشبية في الرواق الخارجي دقة واحدة لتشير إلى النصف بعد الخامسة فجراً، كان هذا ميعاد خروج آخر الزبائن من بيت العايقة (حسنية الماظية) الشهير بشارع كلوت بيك.

دقات قلبها كانت أعلى وطأة من دقات الساعة، إنه اليوم المنشود؛ اليوم الذي ظلت تفكر فيه كثيراً، وتخطط له منذ أكثر من ستة أشهر، بعد أن تأكدت أن كل البرامجية قد دخلوا إلى البيت حاملين رؤوسهم المثقلة بدخان الحشيش والخمر وثقل عملهم ما بين مناهدة الزبائن والقنطورات، ومتابعة ومراقبة الضباط الإنكليز المناوبين في المنطقة، وأن السحابين قد انسحبوا إلى بيوتهم ، والأهم من ذلك كله هو سماعها

لصوت باب العايقة يغلق بالمزلاج الخشبي السميك؛ الذي يصدر صريراً قوياً يسمعه من في الشارع .كانت قد اتفقت مع إسماعيل بعد تلك الليلة التي قضياها سوياً، على وضع خطة مناسبة لهروبها من البيت، حددا المسافة المقطوعة ما بين البيت ومحطة القطار القريبة، بالخطوة والثانية ، متى تخرج من البيت وكيف تتجه إلى المحطة، وعندما تصل ستجده في انتظارها.

-مش عوزك تجيبي حاجة معاكي ، هدمتك إلي عليكي وبس

-ونعيش ازاي بس يا اسمعين دي فلوسي وشقى عمري؟

-فلوس حرام ملعونة، الله الغني عنها وعن نجستها، اسمعي إلي بقولك عليه ، أنا خلاص اتفقت مع صاحبي إلي شاف لنا عشة متطرفة كده نقعد فيها كم يوم لحد ما أشوف مطرح يلمنا، وهو كلم لي المقاول إلي شغال عنده، ووافق يشغلني لما عرف أن صعيدي وبتحمل.

-طب وحياة سيدنا الحسين وحياة الست زينب لو تأخرت عليك أو مجتش والوابور قام لترحل أنت وتسبني.

-و أنا بعمل الأمور دي كلتها علشان ارحل وأسيبك يا منيرة؟

في تمام السادسة كان إسماعيل يقف في محطة القطار قريباً من الباب الخارجي ينتظرها ويعد الدقائق والثواني ويدعو الله أن تكون الأمور قد سارت معها على ما يرام.

دقت ساعة المحطة الكبرى لتعلن السادسة والربع ويفصل بين القطار وانطلاقه خمس عشرة دقيقة فقط.

جال في خاطره ما حدث معه في السنة المنصرمة؛ فمنذ الليلة الأولى التي رأى فيها منيرة وقع حبها في قلبه ، أخذ ليالي عدة يكذّب نفسه ومشاعره تجاهها، ولكنه لم يستطع ، امتنع عن الذهاب إليها فشعر أنه

أرض منع عنها الماء فكادت أن تموت عطشاً، إلى أن ذهب إليها تلك الليلة بعد تفكير طويل طالباً منها أن تتزوجه ، فهي أجمل من رأت عيناه، وأطهر وأنقى القلوب التي يعرفها.

الساعة تشير إلى السادسة والثلث، وبدأ الركاب في الصعود إلى القطار كما أعلن في داخل المحطة.

عشر دقائق ستكون الفاصلة بين موته وحياته، الموت دونها والحياة المليئة بالأمل والحب والبهجة معها

-يا سي الأفندي...أنت مش قاطع تذكرة على الوابور إلى طالع الإسكندرية؟

سأله موظف المحطة

-ايوه

-طب يالله يا خوي اتحرك الوابور ح يمشي ويسيبك.

تذكر وهو يتجه إلى القطار أنه قد أقسم لها أنه سيسافر في الموعد وفي القطار نفسه دون أن يتردد بعد أن باع مفروشات بيته واسترد أجره آخر شهر، من أجل أن يستطيع حجز تذكرتين، وما يكفيهما للعيش عدة أيام حتى يعمل، والآن لا مكان لديه للرجوع ولا يستطيع أن يرجع إلى بلدته.

يصعد الدرجتين على متن القطار، وهو مازال ينظر إلى البوابات علها تظهر ، وعندما بدأ صوت الوابور في الزمجرة وتحرك الحديد في القضبان معلناً استعداده لمغادرة الرصيف؛ شعر بأن عينيه قد فقدت الرؤية، واسودّ الكون حوله، فأسند ظهره إلى باب القطار وأطلق لدموعه العنان.

سمع صوت هرج قادم ، فيفتح عينيه والقطار يتحرك ببطء ليراها تجري حافية القدمين ترتدي فستاناً قصيراً، ومن خلفها يجري عدة رجال وفي أيديهم عُصي غليظة.

مازالت تجري وأنفاسها متلاحقة، ولقد علا صوت ضربات قلبها فلم تعد تسمع أي صوت حولها،

لم تكن تسمع أو ترى شيئاً حولها غير الذي تراه؛

كانت ترى هذا المكان الضخم ذا الأسوار العالية، والسقف الخشبي الملون، الذي يتميز بفتحات ينفذ منها ضوء وهاج، وتسمع تلك الأصوات الغريبة؛ كأجراس أناشيد غير مفهومة، وتشتم تلك الرائحة الجميلة الصادرة من مبخرة نحاسية كبيرة،

كانت ترى تلك الطفلة التي تأتيها دائماً في أحلامها؛ تغرس وجهها في بطن سيدة، ترتعد وتبكي، وتحيط بها حتى تبعد عنها ضربات وركلات تلحق بها من شخص ما، تشعر بيد السيدة وهي تعتصر ظهر الطفلة، لم ترَ وجه تلك السيدة قط، فقط المشهد الذي تراه على الأرض في ركن ما، أصوات صراخ ونحيب، طفلة تخبئ وجهها في بطنها وصدرها، وتحيط بظهرها باليد الأخرى.

مازالت تجري وكل هذه الشواهد أمام عينها،

تراها بصوره مبهمة غير واضحة، سيدة ترتدي ثوباً طويلاً، ذات شعر منسدل مرسل، لا ترى أين تقف؟ أو ماذا تحمل بين يديها، ولكن صوتها يلازمها دائماً وهو الذي أمرها منذ قليل أن تجري ولا تلتفت وراءها

البوابة أمامها مباشرة...

وأخيراً وجدت الرصيف رقم ١، فمضت مسرعة نحوه محاولة الجري مرة أخرى، ولكن قواها لم تعد تحملها، عندما دخلت الرصيف، كان القطار يطلق صفارته، والدخان الأسود الخارج من فوهته يغطي المكان، وقد تلاحم البشر والحيوانات حولها، بدأ كل شيء يضيع، وارتأت أن تلقي بنفسها تحت القضبان، وتتخلص من حياتها، إلا أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس لوقفتها، وفي اللحظة نفسها سمعت أصوات الرجال الذين كانوا خلفها فرأته ... رأته يطل من إحدى الأبواب في آخر عربة في القطار القريبة منها.

اجري يا منيرة اجري صرخ إسماعيل بكل قوته.

سوف تلحقين به يا منيرة اجري ي ي ي

الأصوات خلفها تقترب أكثر فأكثر، كادت أن تلتفت إلى الخلف لتراهم ويروها، ولكنها تذكرت الصوت الذي حدثها بقوله لا تلتفي خلفك مهما حدث.

القطار يتحرك أسرع الآن

بدأت تجري وتجري

القطار يبتعد

وصوت الرجال خلفها يقترب

وهو يمسك بيد في حديد الباب، ويده الأخرى متدلية في الهواء تحاول أن تمسك يديها

لكنها أخذت تفقد الأمل كلما أسرع القطار من حركته.

أصوات ارتطام عربات القطار ببعضها البعض أقل من أصوات ارتطام ضلوعها في صدرها من الرعب والخوف والتعب،

تجري مازالت تجري فاتحة ذراعيها محاولة أن تمسك يد إسماعيل

يبتعد القطار أكثر

أصوات الرجال الآن بدأت واضحة بشدة لدرجة أنها سمعته يأمرها بالوقوف

-توقفي يا بنتي يا منيرة لن تلحقي به مهما حصل

-وقعتك سوداء يا منيرة

ضحكات شريرة خارجة من أفواه تطفح منها أقذر الروائح

هم خلفها ولكنها ترى وجوههم بوضوح متخيلة ما سوف يحدث لها، إلى أن شعرت بعصا غليظة لا تفارق

أيديهم تسقط بشدة على رأسها، وتشتم رائحة الدماء التي تنفجر منها وتغطي عينيها فتفقدها الرؤية، وفجأة تنشق الأرض عن عتالين ممن يعملون في المحطة لحمل الحقائب على نقالات حديدية كبيرة ذات عجلات صغيرة سريعة، يشاهدون الموقف منذ بدايته فيسرعون ويضعون منيرة على نقالتهما ويجريان بها بسرعه الريح إلى أن تلتقي يديها ويد إسماعيل ليقذفها بشدة داخل القطار الذي ازادت سرعته، وملأ دخانه الأسود السماء القريبة، ولكنهما وجداه دخاناً أبيض مليئاً بالعصافير الملونة والفراشات تطير حولهما عندما تلامست أيديهما وسقطت مرتمية في أحضانه،

يبتعد القطار عن محروس وأصدقائّه، ويتبعد بهما عن هذه الحياة التي لم تختلف عن سواد هذا الدخان المنبعث من مدخنة القطار.

وقف إسماعيل ومنيرة داخل أحد المساجد لعقد قران رسمي، بعد أن استخرج إسماعيل لها أوراقاً رسمية باسم منيرة عبد الله

وسأله المأذون ..

-واسم العريس ايه؟.. فأجابه

-إسماعيل اللبان

* * *

(٢٤)

في هذا المكان كانا يلتقيان كل ليلة وإن لم يعلما أو يتذكرا شيئاً عند استيقاظهما .

ولكنه الآن بات الأمر جلياً ، إن في مكان ما غير معلوم ، من الممكن أن تكون تلة خضراء فسيحة، أو سماء ذات سحب صافية تجلسان عليها، أو جبلاً عالياً تلامسان النجوم منه، أو غابة مليئة بالأشجار والورود والطيور ، أياً كان، فهو مكان مريح للنفس، ومن الممكن أن تتنقلا في ذات المرة في أكثر من مكان، الأشخاص غير واضحي المعالم بشكل جيد، ولكن القلوب هي من ترى ، والكلام الصادر ليس بالضرورة أن يكون ككلام البشر، ولكنه لغة مفهومة، أصبحتا الآن تعرفان بعضهما البعض، تتحدثان طويلاً وتطمئن كل منهما على الأخرى، بل تنصحها أحياناً، وأحياناً أخرى لا يتكلمان، ولكن شعورهما أنهما معاً كفيل باستيقاظهم بطاقة إيجابية جبارة ، كثيرون حولهما ولكن أكثر ما كانوا يرونه هو تلك السيدتان اللتان كانتا تحدثهما أحياناً

في يقظتهما وتمليان عليهما ما يفعلان ، إحداهن واقفة في الهواء دائماً ،ذات شعر أسود طويل، ووجه أبيض ملائكي، وترتدي ثوباً طويلاً، وتحمل بين يديها طفلاً صغيراً في المهد، والأخرى غير ظاهرة الوجه تجلس في ركن وتحتضن طفلة تخبئ وجهها في صدرها وتعتصر ظهرها بيديها بقوة.

أرواح تتعانق فتلتقي فتقترب فتكتشف ، قد نرى إنساناً ذات يوم للمرة الأولى، ولكننا نقسم أننا قد رأيناه من قبل ، أو نتواجد في مكان تخطو إليه أرجلنا للمرة الأولى ونشعر أننا قد زرناه من قبل بل نعرف تفاصيله.

هذا ما يحدث عند انتقال الأرواح وخروجها وقت النوم من الأجساد، فحين ننام نموت فعلياً ونسميها بالموتة الصغري حيث تخرج الأرواح من الأجساد لقوله تعالى (الله يتوفي الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها ويرسل الأخرى إلى أجل غير مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) صدق الله العظيم

ولكن إلى أين تذهب الأرواح وقت المنام؟ وكيف تنتقل من موقع لآخر أو من زمان لآخر مختلف؟ وهل هناك حدود وأبعاد وأزمان تتقيد بها أرواحنا الخارجة من أجسادنا؟لا ندري ولا نعرف ولكن من المعلومات القليلة التي نعرفها (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)

أن الروح تسبح في فضاء وتلتقي ببعضها البعض أرواح الأحياء والأموات.

والرؤى الصادقة دليل على هذا. فالأرواح تلتقي وتتحدث وتخبر بعضها البعض أشياء نراها كاملة أو مجزأه أو رسائل نحاول ترجمتها في الصباح كتفسير الأحلام،

(الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف)

فلنبحث داخل أرواحنا ولنكتشف ذواتنا، ولنتعرف على سمو أرواحنا، فهناك أناس تحبنا دوماً وتراعنا وإن كانت من جذور بعيدة ، أجداد الأجداد ، أو ولي من

الأولياء أو حتى رسول ، قد أحببناه فأحبنا وراعنا ورعى ذريتنا إلى يوم القيامة ، فلا تستصغر من المعروف شيء، ولا تقلل من ذاتك فأنت محمود منذ زمن وأنت لا تعلم ، ليس بعملك فقط ولكن بالجهاد والمثابرة، وحب الخير والناس والعمل الصالح ، هم جزء لا يتجزأ من حياتنا، يرشدوننا دوماً إلى طريق النجاة ، فقط حاول أن تترك لهم الباب دائماً مفتوحاً واستقبلهم استقبالاً يليق بهم.

النهاية.

فجر الاحد ١٦-٩-٢٠١٨